ام المسلمين

٣

مُصعَب بن عُمير

الدّاعية المجاهد

محمد حسن بريغش

دار القلم
دمشق - بيروت

مُصعَب بن عمير رضي الله عنه

الدّاعية المجاهد

بقلم
محمد حسن بريغش
عضو رابطة الأدب الإسلامي

الطبعة السادسة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مُصعَب بن عمير رضي الله عنه

الدّاعية المجاهد

هٰــذَا الرَّجُــل

«انظروا إلى هذا الذي نوَّر الله قلبه! لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلة اشتراها بمائتي درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون».

محمد رسول الله ﷺ، وقال هذا
الكلام وقد رأى مصعباً وعليه ثوب خلق

«هاجرنا مع رسول الله ﷺ، نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئاً، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها، وإن مصعب بن عمير مات ولم يترك إلا ثوباً، كانوا إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطي به رجلاه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر».

خباب بن الأرت الصحابي

«كان مصعب بن عمير لي خدناً وصاحباً، منذ يوم أسلم إلى أن قتل رحمه الله بأحد، خرج معنا إلى الهجرتين بأرض الحبشة، وكان رفيقي من بين القوم، فلم أر رجلاً قط كان أحسن خلقاً، ولا أقل خلافاً منه».

عامر بن ربيعة الصحابي

الإهـــداء

لقد فتحت عينيَّ على الحياة لأراك تنقش على الصخر، وتعارك الجبال، وتذوق مرارة الحياة، لكي تشعل ضوءاً في كوخ مظلم.

لقـد عزّ عليـك أن تنال مـا طمحت إليـه، فقصـدتَ بعناد أن تقهر الجهل، وتخرق قلب الصعاب، وتصارع الفقر، لكي تنيلني مع إخوتي هذا النور الذي عز عليك مناله.

أبي، إليـك أنت أقدم هـذه البـاكـورة، هـذا العمـل المتواضع، علك أن تجد فيه شيئاً من زهورك التي أنبتَّها في قلب الصخر، وسقيتها: دماً، ودمعاً، وعرقاً.

إليك وأنت في صبرك وجلدك، أقدم هذا الكتاب إكباراً لإخلاصك، ووفاء لوفائك، وكلمة عرفـان لأبوتـك، من ابنك. يرحمك الله..

محمد حسن بريغش

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، له الشكر والمنة والفضل في الأول والآخر، وبعد:

لم يكن في ظني وأنا أدفع أول كتاب إلى الطباعة أنه سينفد في هذه الفترة الوجيزة، وأجد حاجة لإعادة طبعه مرة ثانية، منذ سنة من هذا التاريخ.

فالحمد لله على فضله، إذ ستبقى الكلمة الطيبة فواحة الشذى، نافذة إلى القلوب، مهما كانت طبيعة الغيوم والرياح.

ولا بد أن أعيد هنا ما قلته في مقدمة الطبعة الأولى، وهو أنني لم أقصد في هذا الكتاب تسجيل أحداث تاريخية ماضية، أو سرد سيرة لحياة مصعب بن عمير رضي الله عنه.

بل أردت وضع هذه الأحداث قبالة الحياة - تتفاعل معها - وتكشف عن جوهر الإنسان حين يستنبت العقيدة في قلبه ونفسه وكيانه كله، ويتحول إلى وقائع وأحداث.

وأردت أن تكون حياة مصعب أنموذجاً حياً واضحاً للشباب المسلم في كل مكان؛ ليروا مثلاً من خلال مجتمع، يعيش بعقيدته، ويتلقى من الحياة، فيظفر بالرضوان والشهادة.

وأملي أن يكون الكتاب قد وفَّى بشيء من الغرض، وساهم في غرس العقيدة الصحيحة من خلال الوقائع والأحداث والمثال الحي.

ولا أنسى هنا أن أشكر دار القلم، التي قامت بنشر هذا الكتاب في سلسلتها القيمة «أعلام المسلمين» وساهمت - ولا تزال - في نشر الكلمة الطيبة. أسأل الله الهدى والرشاد، وله الحمد في الأول والآخر.

١٥ جمادي الأولى ١٣٩٥ الموافق ٢٥/٥/١٩٧٥.

محمد حسن بريغش

مقدمة الطبعة الأولى

١

كلمات لا بد منها قبل الدخول في البحث، كي تضيء خطوات القارىء الكريم، وتعينني - أيضاً - على توضيح الصورة التي قصدتها من هذه الدراسة، فالبحث ليس ترجمة شخصية بالمعنى المعروف في باب التراجم والسير، وإنما أردت منه أن يكون دراسة لشخصية إسلامية معروفة، وهي شخصية الصحابي الكريم مصعب بن عمير رضي الله عنه، من خلال رؤيتنا للمجتمع الإسلامي، وخطوات الدعوة الإسلامية، ضمن الصعاب والعذاب وعناء الطريق.

ورؤية المجتمع الإسلامي، مجتمع العقيدة الربانية، في نموه وكفاحه وتكامل بنائه، ضروري لإيضاح الجوانب الكثيرة لحياة الداعيةكفرد، ومن ذلك كله أبتغي رؤية مصعب بن عمير فرداً ضمن مجموع، وداعية ضمن مجتمع، ولبنة في بناء، دون أن أنسى ملامح الشخصية وميزاتها التي تفرده عن غيره من الدعاة.

بالإضافة لذلك لا بد من رصد طريق الدعوة، وحركة

العقيدة، وهي تشق طريقها الصعب وسط بحار الجاهلية، وأعداد المنكرين الحاقدين، ولا أنسى في ذلك كله تبيان دور الفرد الداعية وسط المجموع المسلم، وهم يواجهون المجتمع، فأكون بذلك قد وصلت حركة الفرد بالمجموع، وبينت صفات الداعية في شبكة العلاقات الاجتماعية، حتى لا يظن أحد أن هؤلاء الدعاة كانوا نماذج مبتورة، ونشازاً بين مجموع، فلا يؤبه لهذه النماذج، ولا يقيم وجودها دليلاً على صدق الطريق وصحة المنهج وأثره في بناء الإنسان والمجتمع.

فالبحث في هذه الصورة ليس ترجمة ذاتية كما قلت، وإنما كان صورة واضحة عن الداعية المسلم الذي حمل أعباء الدعوة: عقيدة، وسلوكاً، وعذاباً، وجهاداً. وانتهى بالشهادة راضياً مرضياً، حين آثر صوت الحق على كل المغريات والمخوفات عبر الدرب العسير.

وعرضت من خلال هذه الدراسة إلى أنواع المحن الكثيرة التي تواجه الداعية في هذا الطريق، تاركاً سيرة مصعب تشرح طريقة الرد العملي لجند الإيمان على هذه المحن.

وبهذا يخرج البحث عن كونه يؤرخ لهذه الشخصية عن طريق السرد التاريخي وتنسيق الحوادث، التي كثيراً ما تظل حكايا يأنس بسماعها سمَّار الليل وطالبو الراحة بعد العناء.

ـ ٢ ـ

ولقد كان اختياري لشخصية مصعب رضي الله عنه بالذات،

لكونه الصحابي الشاب، الذي ما زال يحمل في نفسه تطلعات الغد، وفي جسده فورة الشباب، ومع ذلك بايع الله سبحانه بيعة الإيمان والصدق، ولامس الإيمان شغاف قلبه، فانسلخ عن جاهليته وبرىء منها براءة تامة، وتخلص من أصعب برائنها، واجتاز أخطر محنها، بإيمان واستقامة، وبخطى ثابتة واضحة، فكان بذلك ثابتاً صابراً قوياً. ولم تثنه في هذا مكانته بين قومه وشهرته في جاهليته، ورعاية أبويه له، وقساوة عشيرته عليه، ووفرة المال بين يديه، وكثرة التنعم والرفاه في حياته. بل رفض هذا كله ليفوز برضوان الله ـ وما أجله من فوز ـ وانخرط في دعوته شاباً قوي الإيمان، واضح الخطا، ثابت الجنان، متفتح البصيرة. وتحمل في ذلك بؤس الحياة، وخشونة العيش، وعذاب الطريق، وعانى قسوة ما بعدها قسوة في مأكله ومشربه، ومقامه ورحيله، ولكن عقيدته ظلت راسخة قوية، حتى نال الشهادة، وفاز برضوان الله.

ـ ٣ ـ

هذه الصورة التي حرصت على إيضاحها على ضوء الواقع والتاريخ، الذي لا يداخله الشك ولا يغمز صحته غامز، أضعها إلى جانب صور كثيرة محزنة، لرجال يتساقطون على الدرب، تجذبهم المادة والجاه، وتتسرب إلى نفوسهم خبائث الشيطان والانحراف فتسري منهم مسرى الدم في العروق، وبهذا يخرجون من دائرة الإيمان الحق لمغريات صغيرة، ويصلون إلى مواقع بعيدة عن الحق، فتأخذهم العزة بالإثم ـ أحياناً ـ حتى يدافعوا عن قصورهم، ويبرروا انحرافهم، ويغدو وجودهم عالة

على دعاة الحق وحملة الإسلام.

— ٤ —

ولقد حاولت جهدي أن أبحث في كل مصدر أو مرجع موثوق يفيدني في البحث، أستقي منه ما يساعدني على رسم الصورة. ولقد رأيت صورة مصعب واضحة في أكثر المصادر، لا تناقض في أخباره، مما يجعل سيرته موثوقة بأخبارها، تزيدنا اطمئناناً إلى كل ما ورد حوله من أخبار في هذه المصادر. ولقد ذكرت في نهاية الكتاب هذه المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في النقول والأخبار.

واستفدت أيضاً من الدراسات المعاصرة عن الدعوة والسيرة والقرآن الكريم، لا سيما ما يتعلق منها بصفات الدعاة عامة، وأخص بالذكر منها دراسات سيد قطب رحمه الله.

وأملي أن تكون هذه الدراسة قد حققت الغرض الذي هدفت إليه، في إعطاء أنموذج حي عن الدعاة المسلمين الذين عاشوا الدعوة: عقيدة، ومنهجاً وسلوكاً، لكي نتأسى به في الطريق، ولتكون مَعْلَماً على الدرب الطويل للسالكين الدائمين.

ولا أدّعي أنني بلغت ما يمكن أن يكتب حول الموضوع، وإنه ليسعدني أن أسمع إرشادات الذين يرون نقصاً أو يبدون ملاحظة، وأسأل الله أن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم وهذا غاية مبتغاي، راجياً منه القبول.

والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

* * *

مُجتمعُ الجاهِليَّةِ

قبل أن ندخل في دراسة المجتمع الإسلامي لنرى دور مصعب فيه، لا بد من إلمامة كافية عن المجتمع الجاهلي، والحالة التي كان يعيشها المسلمون قبل إسلامهم، لنتبين طبيعة هذه البيئة، والمؤثرات التي كانت تفعل بهذا المجتمع، والدوافع التي كانت تحرك الفرد والمجتمع، ومن ثَمّ نتبين مكانة الفرد في إطار هذه البيئة، ونرى سعة النقلة التي حققها الإسلام لهذا المجتمع وللفرد فيه، وضخامة الأثر الذي أحدثه الدين الجديد في المجتمع العربي ـ خاصة ـ والإنساني ـ عامة ـ وللحياة كلها بشكل أعم.

الحياة الجاهلية:

لقد قامت الحياة الجاهلية على أساس العصبية بين القبائل، وبالتالي فإن الفرد لا يعطي ولاءه إلا لقبيلته من بين القبائل الأخرى، وللبطن الذي ينتسب إليه من بين بطون قبيلته الواحدة، ومن هنا قامت المنازعات بين القبائل لأتفه الأسباب، يدفعهم حب الثأر أو حب التسلط أو غيرهما من الدوافع المختلفة التي تجعلهم يقتتلون طويلاً، ويريقون دماء

بريئة، ويزهقون أرواحاً لا شأن لها ولا ذنب، غير انتسابها لقبيلة أو لأخرى.

إلى جانب هذا فقد كانت البيئة الطبيعية القاسية قد فرضت عليهم نوعاً من الحياة المرتبطة بوجود الكلأ والمرعى، والتي تسعى وراء مواطن المياه والنبات، حفاظاً على مواشيها التي تعتبر المصدر الرئيسي لحياتها. والرجل في كل هذا واحد من القبيلة، لا رأي له ضمن المجموع في حق أو باطل، وفي خير أو شر، أو إزاء إرادة رئيس القبيلة وزعيمها الذي يقرر مصيرها في كثير من الأحيان، لذلك قال قائلهم:

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غوَتْ
غَويْتُ وإن ترشدْ غزيةُ أرشُدِ

وأصبحت الحرب والغزو طبعاً ملازماً لهم، ألهمتهم إياه معيشتهم البدوية وولاؤهم القبلي، حتى صارت مسلاة لهم في بعض المرات، وحتى قال قائلهم:

وأحياناً على بكر أخينا
إذا ما لم نجد إلا أخانا

فهانت عليهم الحرب وإراقة الدماء، التي كثيراً ما تثيرها حادثة تافهة، أو سبب لا قيمة له، أو أنفة رعناء. فهذه الحرب بين تغلب وبكر (ابني وائل) تدوم أربعين سنة، ويسقط فيها أثناء القتال الكثيرون من الجانبين، وتراق الدماء البريئة بلا حساب، ويخسر الناس أموالاً وأمتعة كثيرة، وما كل ذاك إلا

لأن كليباً ـ رئيس معدّ ـ رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ، فاختلط دمها بلبنها، بدافع الغطرسة والجبروت، فأقدم ـ لهذا ـ جساس بن مرة وقتل كليباً، واشتعلت الحرب بين بكر وتغلب دون أن تجد وسيلة للخمود، حتى قال فيها المهلهل ـ أخو كليب ـ: «قد فني الحيان، وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد، دموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن».

وكذلك حرب داحس والغبراء التي كان سببها أن داحساً ـ فرس قيس بن زهير ـ كانت سابقة للغبراء ـ فرس حذيفة بن بدر ـ لذلك كمن فتية من أسد بإيعاز من حذيفة بن بدر، ليعيقوا قيساً إن جاء سابقاً، حتى سبقه حذيفة بن بدر، مما أثار حفيظة قيس، وجرى حينها قتال، وقامت القبيلتان تنصران أبناءهما، فنشب قتال كبير، أزهقت فيه أرواح وسالت دماء.

وكانت القبائل كثيراً ما تنهب القوافل، فتقتل رجالها وتسلب أموالها، وتسبي نساءها، حتى أصبحت تحتاج إلى خفارة ساهرة وحراسة قوية، فكانت عير كسرى تُبذْرق[1] من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة، والنعمان يبذرقها حتى تخرج من أرض بني حنيفة، ثم تدفع إلى تميم، وتجعل لهم جعالة، فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن، وتسلم إلى عمال كسرى باليمن.

---

(١) البذوقة: الحراسة

ومن خلال هذه الحروب والمعارك كان الشباب يندفعون بعصبية جاهلية غير واعية، ودون تبصر أو رويّة لمشاركة القبيلة في حربها، أو في إشعال حرب جديدة، دون اكتراث منهم بما ينتج عنها من الضحايا والظلم والعدوان، وما ينشأ عنها من تقطيع أواصر الصلات بين القبائل العربية التي تنتسب إلى أرومة واحدة.

هذه واحدة من مشاغل الشباب في الجاهلية: طيش وعنجهية وعصبية مقيتة، لا مكان فيها لتدبر أو تفكير، ولا موضع لروية أو تعقل، ولا مجال عندها لحكمة أو مصلحة أو أخوة أو قرابة أو سلم. أما المشاغل الأخرى فهي: اللهو الحرام، وانتهاك الحرمات، والتعدي على العفة، وإن لم يكن ذلك فما معنى أن نجد المعلقات للشعراء المشهورين - وهم يمثلون ذروة المجتمع آنذاك - يذكرون فيها مفاحشهم وركضهم وراء اللذة الحيوانية الحرام؟

فامرؤ القيس - وهو من مشاهير شعراء الجاهلية - يحكي لنا في معلقته قصة جرت له مع عذارى حية، تعتبر من أفحش القصص، وفيها يظهر كيف أنه كان يهين كرامة الحي، ويفضح الحرائر، ويتعدى على حرمات النساء، ولا يكترث لفضيحة قريبة أو بعيدة.

وطرفة بن العبد نجده في معلقته يحدد هدف كثير من شباب الجاهلية واهتمامهم في الحياة، لا سيما وطرفة شاعر

لم يتجاوز مرحلة الشباب يوم خطفته المنية:

نـدامـايَ بـيضٌ كـالـنجـوم، وقَـيْـنَـةٌ
تـروح عـلينـا بـيـن بُـردٍ ومُـجْـسَـدِ[1]
إذا نحن قـلنـا: أسـمعينـا، انبـرت لـنـا
عـلى رِسْلهـا، مـطروقـةً، لـم تَـشَـدَّدِ[2]
ولـولا ثـلاث هـن مـن عـيشـة الـفتـى
وجـدِّك لـم أحْـفـلْ متـى قـام عُـوَّدي[3]
فـمـنـهـن: سـبـقُ الـعـاذلات بـشَـربـةٍ
كُميْتٍ، متى مـا تُعْـلَ بـالمـاء تُـزْبِـدَ[4]

---

(١) الندامى: جمع الندمان وهو النديم: وهو الذي يجلس معه على الشراب. القينة: الجارية المغنية. المُجْسد: الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران. يقول: نداماي أحرار كرام، تتلألأ ألوانهم، وتشرق وجوههم، ومغنية تأتينا رواحاً لابسة برداً، أو ثوباً مصبوغاً بالزعفران، أو ثوباً مشبع الصبغ.

(٢) يقول: إذا سألناها الغناء، عرضت لنا تغنينا متئدة في غنائها على ضعف نغمتها ولم تتشدد.

(٣) في رواية أخرى: (فلولا ثلاث). وجدِّكَ: قَسَمٌ. عُوَّدي: جمع عائد: من العيادة وهي زيارة المريض. يقول: فلولا حبي ثلاث خصال هنّ من لذة الفتى الكريم لم أُبالِ متى قام عوّدي من عندي آيسين من حياتي، أي لم أُبالِ متى متُّ.

(٤) يقول: إحدى تلك الخلال أني أسبق العواذل ـ الذين يلومون ـ بشرب شربة من الخمر، كميت اللون، متى صب عليها الماء أزبدت، يريد أن يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل.

وكَــرِّي إذا نــادى الــمُـضــاف مــحـنّــبــاً
كـسِيــدِ الـغـضــا ذي الـســورة المتــورِّد[1]
وتقصيــرُ يــوم الــدَّجْن، والــدجــنُ معـجِبٌ
بِـبَهْـكَـنـةٍ تـحـت الـطِّراف الـمُـعَـمَّـدِ[2]

وكان طرفة يرسم إطاراً له ولصحبه من شباب الجاهلية، ويفلسف هذه الحياة بما يناسبه فيها، إنها تزجية فراغ مع الندامى بشرب الخمر والتمتع بالقيان، والتلذذ بسماعهن والقصف معهن، والفحش بهن، ونجد الشاعر أيضاً يحدد أهداف الحياة للشباب بخصال ثلاث:

شرب الخمر حتى الثمالة مع الندمان. والقتال بشجاعة، والثبات يوم الحرب، واللهو والقصف مع النساء لملء فراغ الأيام الغائمة.

---

(١) الكر: العطف. المضاف: الخائف والمذعور. المحنب: الذي في يده انحناء. السيد: الذئب. الغضا: شجر. الورود والتورد: إتيان الماء للشرب. وفي رواية أخرى: (نبَّهتَهُ المتورد) يقول: والخصلة الثانية: عطفي ـ إذا ناداني الخائف من عدوه ـ إياي فرساً في يده انحناء يسرع في عدوه إسراع ذئب يسكن فيما بين الغضا إذا نبّهته وهو يريد الماء.

(٢) قصرت الشيء: جعلته قصيراً. الدجن: إلباس الغيم آفاق السماء. البهكنة: المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة. المعمد: المرفوع بالعمد. جعل الخصلة الثالثة استمتاعه بخليلاته، وشرط تقصير اليوم لأن أوقات اللهو والطرب أقصر الأوقات. وقوله والدجن معجب: أي يعجب الإنسان.

هذه هي الأهداف لهذه البيئة الخالية من كل شاغل، الفقيرة في مواردها، التي لا يحكمها نظام غير الهوى والعصبية، ولا تضبط أمورها عقيدة تحكم ضمائر أفرادها، وتمتص طاقاتهم، لتوجههم في الطريق السوي الذي يفيد المجتمع كله، لذلك كانت هناك أمراضٌ كثيرة في هذا المجتمع، تأصلت ورسخت وتمكنت من نفوس القوم: من شرب مسرف للخمر بلغ عندهم مبلغاً كبيراً، حتى تحدث عن ذلك الشعراء ـ كما رأينا ـ وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغة العرب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة ليلاً نهاراً، يرفرف عليها علم يسمى (غاية) وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة الخمر مرادفة لكلمة التجارة.

وكان القمار أيضاً من أمراض الحياة الجاهلية. قال قتادة: وكان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره، حتى أورثت بينهم عداوة وبغضاً.

وكانوا يتعاطون الربا ويجحفون فيه إلى حد الغلوّ والقسوة، حتى صار الغريم يقول لغريمه: «زدني في الأصل وأزيد في مالك» وهذا ينقلنا للحديث عن حياتهم المعيشية والأمور التي تحكمت بها آنذاك.

البيئة الاقتصادية:

حياة العرب ـ قبل كل شيء ـ حياة البداوة التي تألف

الصحراء الفسيحة الجافية، والعيش في البيئة المنسرحة القاسية، لذلك كان الرعي هو المهنة المشتركة للأكثرية الساحقة من العرب، ولكن هذا لا يمنع وجود بعض الأعمال الأخرى التي اعتمدت عليها حياتهم مثل التجارة، حيث كانت مكة أشهر مراكزها، وفيها تألفت البيوتات الكبيرة، واشتهر كثير من رجالها بالتجارة ووقف بعض هؤلاء أمام الدعوة بجبروتهم ونفوذهم وسلطانهم على العرب، كما أنه وقف بعضهم الآخر إلى جانب الدعوة مؤمناً مضحياً صادقاً، يبذل كل غال ورخيص، ليدلوا بفعلهم على القيم الحقيقية في الحياة التي تنبع من العقيدة لا من المادة.

ولشهرة مكة بالتجارة نزلت آيات القرآن تبين هذه النعمة السابقة في الآيات التالية: ﴿لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[1] ولكن هذه الحياة كانت تحتم التفاوت الكبير في المجتمع بين طبقة ثرية غنية مسيطرة على التجارة، ولها نفوذها الكبير في مكة، وبيدها أمر الحل والعقد في شؤون الحرب والحج وغير ذلك، وطبقة فقيرة تعيش على الرعي أو في حراسة القوافل وغير ذلك من الأعمال.

ومن هنا نشأ نظام الربا في مجتمع يقوم على الهوى والعصبية وحب المادة وإعلاء القيم الهابطة على قيم الإنسان

(١) سورة قريش.

وكرامته، مجتمع خالٍ من عقيدة تقوِّم انحرافات الفطرة وشذوذ الناس.

ونشأ أيضاً نظام الرق، وهذان النظامان ـ الربا والرق ـ عانت منهما الإنسانية كثيراً، وما زالت تعاني من أشكالهما وصورهما الحديثة المتمدنة في الشرق والغرب، فسحقت كرامة الإنسان وأطفىء نور روحه، ومزقت بقايا أخلاقه ومشاعره، وسلب ماله وعرضه. ومن صور الربا التي كانت سائدة في الجاهلية ما حدّث عنه قتادة: «إن ربا أهل الجاهلية: يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى، فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخرّ عنه»[1].

وقال مجاهد: «كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين، فيقول: لك كذا وكذا وتؤخر عني، فيؤخر عنه»[1].

وقال أبو بكر الجصاص: «إنَّه معلوم أن ربا الجاهلية إنما كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة، فكانت الزيادة بدلاً من الأجل، فأبطله الله تعالى». إن هذا النوع من الربا هو ربا النسيئة الذي قال عنه الإمام الرازي في تفسيره أيضاً: «إن ربا النسيئة هو الذي كان مشهوراً في الجاهلية، لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل، على أن يأخذ منه كل شهر

(١) انظر ظلال القرآن تفسير الآية (٢٧٩) وما بعدها من سورة البقرة.

قدراً معيناً، ورأس المال باقٍ بحاله، فإذا حلّ طالبه برأس ماله، فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل»[1].

هذه صورة عن جانب من جوانب العلاقات في المجتمع الجاهلي. الذي يستغل فيه الفرد حاجة الفرد الآخر، ويثري إنسان على حساب أناس محتاجين، ويزداد التفاوت بين الغني الفاحش بغناه، والفقير المعدم من فقره، ويزداد الظلم والجور. وتزداد العداوات والخلافات والمنازعات بحثاً عن القوت والمادة. وكذلك كان نظام الرق يستهين بكرامة الإنسان، ويعلي طبقة على أخرى وفرداً على ذويه، لا لميزة تميزه، وإنما لظرف من الظروف، أو لسلطة ورثها من أبيه وعشيرته، أو لثروة تحدرت إليه من سابقيه، أو لِلَوْنِ بشرته.

وكان في مكة ـ خاصة ـ عدد كبير من العبيد والموالي الذين ليس لهم إلاَّ طاعة الأغنياء والسادة الجاهليين، وجاء الإسلام ليحرر هؤلاء المظلومين. ويقرر القيم الإنسانية الحقة ـ إلى جانب ما عمل في الحياة ـ واستطاع بعد تجفيف منابع الرق أن يقضي على هذا المرض الإنساني الخطير.

المرأة الجاهلية:

لقد كانت جميع الأمم ـ فضلاً عن العرب ـ تنظر إلى المرأة نظرة احتقار وازدراء بالغين، حتى كان للروماني ـ قبل

---

(١) المصدر السابق.

النصرانية ـ وغيره الحق في أن يقتل زوجته، كما له الحق في قتل عبيده، وكان يعتبرها مصدر الشرور وأنها مخلوقة لا تستحق غير اللعنة، ثم اختلفوا حول وجود الروح عند المرأة، فمنهم من قال بوجود الروح في المرأة، ومنهم من نفى ذلك. بينما نجد أن العرب يختلفون قليلاً عن غيرهم. فبعضهم مجّد المرأة في الجاهلية، وناجاها في سره وعلنه، ونظر إليها فوضعها في منزلة مرموقة، لكن الأغلبية كانوا يشعرون بخيبة أمل عند ولادة الأنثى، ويتطيّرون منها، ويعدونها أداة شر وبلاء، وهؤلاء وصفهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله:

﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هُونٍ، أم يدسُّهُ في التراب؟ ألا ساء ما يحكمون﴾[1].

وهاتان الآيتان الكريمتان تدلان على شيوع عادة وأد البنات بعد ولادتهن، وعلى كره الأنثى بشكل عام، ولقد كانت قبائل ربيعة وكِنْدَة تَئِد بناتها خوفاً من أن يجرهن الفقر إلى العار والفضيحة، بل إن بعض العلماء ذهب إلى أن الوأد كان في عامة قبائل العرب، وأنه: «يستعمله واحد ويتركه عشرة»[2] ولقد ذكروا أن رجلاً واحداً هو قيس بن عاصم المنقري، وأد

(١) الآيتان ٥٨ و ٥٩ من سورة النحل.
(٢) بلوغ الأرب، وأسد الغابة.

بضع عشرة من بناته في الجاهلية. فلما أسلم قال يوماً للنبي ﷺ: «إني وأدت اثنتي عشرة بنتاً أو ثلاث عشرة بنتاً» فقال له النبي ﷺ:

«اعتق عن كل واحدة نسمة»(١).

وهناك صورة من صور امتهان المرأة في الجاهلية بشعة شنيعة، فقد كان بعضهم يرى أنه أحق بزوجة صديقه بعد موته، ولذلك يقول: «أنا أحق بامرأته» ويضمها إليه، فإما أن يختارها لنفسه أو يزوجها ويستولي على مهرها. وإذا مات الرجل ورث ولده ـ فيما يرث من متاعه ـ زوجاته جميعاً(٢)، وتمتع بهن كما تمتع أبوه من قبل. وقد سمى الله سبحانه هذا النكاح المقت، فقال: ﴿لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلَّا ما قد سلف، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾(٣). وشاع ـ أيضاً ـ زواج المتعة شيوعاً كبيراً قبل الإسلام.

ومن صور المظالم حرمانها من الإرث حتى قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «والله إنَّا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم».

---

(١) أسد الغابة في ترجمة قيس.

(٢) ما عدا أمه.

(٣) الآية ٢٢ من سورة النساء.

إن هذا الوضع الشاذ عن فطرة الإنسان، البعيد عن احترام كرامة الإنسان، يدل على فساد التصور في هذا المجتمع، ويعطينا صورة واضحة عن مدى الاختلال والهبوط، وازدياد الشرور والمظالم، وضياع كرامة الإنسان. ولهذا جاء الإسلام لينصف المرأة - مع من أنصف - ويصنع المجتمع الجديد الذي يعلي من قيمتها، ويضعها في مكانها المناسب له، فيعطيها حقها، ويساويها بالرجل في كثير من الأمور، ويخصصها بالأمور الأخرى المناسبة لتكوينها العضوي والنفسي والجسدي.

أما عن طريقة تكوين الأسرة التي هي نواة المجتمع، فنكتفي بما روته السيدة عائشة - رضي الله عنها - في تصوير أنواع النكاح والاتصال بين الجنسين في الجاهلية كما جاء في صحيح البخاري:

«إن النكاح في الجاهلية، كان على أربعة أنحاء»:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل ولِيَّتَهُ أو بنته، فيُصْدِقُها ثم ينكحها.

والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد!! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على

المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل!

والنكاح الرابع: يجتمع النـاس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ـ وهن البغايا ـ كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لها القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ـ فالتاطه ـ ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك».

فأي كرامة للمرأة بعد ذلك إذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة على هذه الصورة الهابطة؟

وأية أسرة هذه الأسرة التي ستكون مبنية على هذه العلاقة؟ وأي جيل هذا الجيل الذي ينتج من علاقات البغاء وحيوانية الصلة؟ وكيف ستكون نفسية هذا الطفل الذي لا يدري من أبوه، بل يجد نفسه سُبّة عار ممزق بين عشرة رجال؟!!

لكننا لا بد أن نذكر قبل ختام الحديث عن المرأة وحالة المجتمع آنذاك: أن هذه الصورة التي رأيناها، لم تكن هي الصورة الوحيدة في المجتمع، بل كان هناك من يحافظ على

كرامة النساء، ويشعل الحرب دفاعاً عن عرض أو حسب أو شرف. نجد صوراً من هذا النوع في المجتمع إلى جانب الصور التي ذكرناها، لكن تعاظم الصور الهابطة، وكثرتها جعل المجتمع ينطبع بهذا الطابع المقيت، الذي رأينا صورة عنه في الصحائف السابقة، وغدا المجتمع مجتمعاً تسوده شريعة الظلم، ويتحكم فيه الهوى الحيواني الطائش، وتستشري بين أوصاله العادات الخبيثة والمفاسد الخطيرة، وكان متفككاً متباغضاً متحاسداً متدابراً متعادياً، شديد التنازع، كثير الحروب لا يجتمع على رأي، ولا يوجد بين أطرافه غاية. أهلكت شبابه مهاوي الرذيلة وثورات العصبية، وأنهكت شيوخه غطرسة الشهرة والجاه، وضاع كثير من نسائه في حمأة الفحش والرذيلة، حتى طبعت حياتهم بهذه المادية المتطرفة وغزلهم الحسي، دون أن يروا من المرأة إلّا المظهر المادي الحسي.

عقائد الجاهلية:

على الرغم من دخول المسيحية إلى أطراف الجزيرة العربية، ووجود بعض المراكز اليهودية فيها، إلّا أن الشرك بالله وعبادة الأوثان كان دين العرب العام والعقيدة السائدة، ولقد أوضح القرآن الكريم كثيراً من معتقدات الجاهليين.

١ ـ لقد كان الجاهليون يرون أن الله إلّه أعظم، خالق الأكوان، ومدبر السماوات والأرض، بيده ملكوت كل شيء:

﴿ولئن سألتهم من خلقهم، ليقولنَّ: الله[1]﴾. ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، ليقولن الله[2]﴾. ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض من بعد موتها، ليقولنَّ الله[3]﴾.

٢ ـ ولكنهم لم يؤمنوا بأنَّ الله سبحانه وتعالى، الذي خلق السموات والأرض والكون كله يتدخل في شؤونهم الخاصة والعامة، بل اتخذوا من الأصنام وغيرها آلهة من دون الله، ليكونوا لهم أولياء وحماة في النوائب والشدائد، ولدفع الخوف عنهم ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزّاً[4]﴾. ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون[5]﴾.

٣ ـ وكذلك كانوا يتخذون آلهة لكي يسألوها، ويستغيثوا بها من دون الله عز وجل: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تَتْبيب﴾[6]. ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الزخرف.
(٢) الآية ٦١ من سورة العنكبوت.
(٣) الآية ٦٣ من سورة العنكبوت.
(٤) الآية ٨١ من سورة مريم.
(٥) الآية ٧٤ من سورة يس.
(٦) الآية ١٠١ من سورة هود.

شيئاً وهم يخلقون﴾[1]. ﴿ولا تدع مع الله إلّهاً آخر لا إلّه إلاَّ هو﴾[2].

٤ ـ وكذلك كانوا يؤمنون بأن الآلهة التي يعبدونها من دون الله تقربهم إلى الإلّه الأعلى، فهي واسطة وطريق للوصول إليه : ﴿أأتخذ من دونه آلهة، إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾[3] ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء: ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زُلفى، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون﴾[4].

٥ ـ ولم يكن لهم تصور شامل عن الألوهية، بمعنى أنه الإلّه في السموات والأرض، وأنه الرب الخالق المهيمن على كل شيء من الخلق: إنساناً أوحيواناً أو نباتاً أو جماداً، وأنه لا إلّه ولا رب سواه، وهو وحده الذي يستحق العبادة، وهو وحده له الحاكمية على الناس وله الدين من دون الخلق.

٦ ـ ولذا فإنَّ العرب في الجاهلية، كانت غالبيتهم تعبد الأوثان من دون الله، أما أولئك الذين ترفعوا عن عبادة الأصنام، فكانوا شواذاً بين الناس، وقد آمنوا بوحدانية الله عزّ وجلّ،

---

(١) الآية ٢٠ من سورة النحل.
(٢) الآية ٨٨ من سورة القصص.
(٣) الآية ٢٣ من سورة يس.
(٤) الآية ٣ من سورة الزمر.

وأقروا بيوم البعث والحساب ومنهم: رئاب الشّني وكان من عبد القيس، وأسعد أبو كرب الحميري، وقس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن الصلت وأدرك النبي ولم يسلم، وورقة بن نوفل وقد أسلم، وعداس مولى عتبة بن ربيعة وقد أسلم وقتل يوم بدر، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس وقد أدرك النبي ﷺ وأسلم، وأبو عامر الأوسي، وعبيدالله بن جحش الأسدي وقد أسلم ثم عاد عن إسلامه في الحبشة ومات هناك، وبحيرا الراهب[١].

٧ ـ ومنهم مَن أقرّ بالخالق، وكذب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء هم الذين حكى الله تعالى عن إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله: ﴿وقالوا: ما هي إلَّا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلَّا الدهر..﴾ ورد عليهم بقوله: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلَّا يظنون[٢]﴾.

٨ ـ ومنهم مَن مال إلى اليهودية والنصرانية، وقد كان جماعة من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله، وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون[٣]﴾ وقوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى. ومناة

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ص ٤٧ وما بعدها.

(٢) الآية ٢٤ من سورة الجاثية.

(٣) الآية ٥٧ من سورة النحل.

الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى؟. تلك أذن قسمة ضيزى!![1]﴾.

وأما عبادتهم للأصنام فكما روى الكلبي أن الذي دعا العرب إلى عبادة الأوثان والحجارة: أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلاّ احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً وصبابة بمكة، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا، يحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل وغيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم.

وذكر الكلبي في كتاب الأصنام أنه: «كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً». فلما بعث الله نبيه وأتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، قالوا: «أجعل الآلهة إلّهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب﴾[2] يعنون الأصنام.

٩ ـ ومنهم مَن اتخذ بيتاً، ومنهم مَن اتخذ صنماً، ومَن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام

---

(١) الآيات ١٩ ـ ٢٢ من سورة النجم.

(٢) الآية ٥ من سورة ص.

غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافة بالبيت، وسموها الأنصاب. وكان الرجل إذا سافر فنـزل منزلاً أخـذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاثاً أثافي لِقِدْرِهِ، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك.

وكانوا ينحرون ويذبحون لها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها، يحجونها ويعتمرون إليها.

روى البخاري عن أبي رجاء العُطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً، جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه، ثم طفنا به».

١٠ - وإلى جانب هذه الأصنام كانوا يعبدون الملائكة والجن والكواكب، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله، ويعبدونهم، ويتوسلون بهم عند الله، واتخذوا كذلك من الجن شركاء، وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم.

قال الكلبي: كانت بنو مُلَيْح من خزاعة يعبدون الجن.

وقال صاعد: كانت حِميْر تعبد الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدبران، ولخم وجذام المشتري وطي سهيلاً، وقيس الشعرى العبور، وأسد عطارداً[١].

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي. وهذه كلها أسماء للكواكب.

ومما يتبع عقائدهم هذه العادات التي تعتمد على هذه المعتقدات الخرافية مثل: البَحِيرة، والسائبـة، والوصيلة، والحامي.

* * *

هذه هي ملامـح الجاهليـة وعقائـدها، تبـدو في هذا المستوى الهابط بالإنسان، الـذي يزدري عقله وتفكيـره، ويزدري بكرامته الإنسانية، ولا تصان حريته إلَّا ما كان من حرية البهائم، ولا يحفظ عليه ماله أو دمه، بل هو معرض للقتل والسلب والنهب، وغالباً ما يكون حائراً بين هواه وهوى عشيرته وقومه.

كل هذا لأن المجتمع لم يحكمه منهـج رباني، ولم يكن يؤمن بعقيدة تحميه من العبث والاقتتال والضلال، فلا غرابة أن نجد عابد الصنم وعابد الشجر وعابد النجـوم، يثيرون حروباً ضارية من أجل ناقة أو فرس، أو غير ذلك من الأسباب التافهة.

ولا غرابة أن نجد من يتمسح بالحجر جيئة وذهاباً، لا يحفظ على الناس أعراضهم، ولا يأمنه الناس على بيوتهم ومواشيهم، فيرتكب الفاحشة، ويغير على الحي، ويعتدي على الحرمات، ويفسد سمعة الآخرين، لأن عابد الصنم لا يخاف عقاباً ولا يخشى عذاباً، وشارب الخمرة لا يعقل بعد ذهاب عقله حلالاً ولا حراماً، والحياة القائمة على الهوى

والعصبية لا تعرف للناس حقاً ولا واجباً، والمجتمع الذي تتحكم فيه شهوات الإنسان ومصالحه المادية لا يمكن أن يرى ذمة للآخرين وحقاً للغير، وهكذا كان العرب، أبعد ما يكونون عن صفة المجتمع الواحد المتماسك، بل قوم متفرقون، إذا اجتمعوا فلمصلحة آنية أو عصبية طاغية، وإن تلاقوا فلثأر أو عدوان، وبعدها فهم شتيت ممزق بين مصالحهم وأهواء زعمائهم.

مجتمع يسوده الجهل والخرافة والزيف والضلال في الاعتقاد، ويسوده الجهل بالحياة وتكاد تطغى عليه الأمية في كل شيء.

ولكن ألا يحق لنا أن نتساءل: ألم يكن لهذا المجتمع فضائل؟ ولماذا اختار الله العرب من بين الناس لينزل عليهم رسالته؟

لا شك أن العرب قد امتازوا بمواهب وأخلاق تفردوا بها، أو كانوا أسبق من غيرهم فيها: كالفصاحة، وقوة البيان، وحب الحرية، والأنفة، والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل ما يؤمنون به، والصراحة في القول، وجودة الحفظ، وقوة الذاكرة، وحبهم للمساواة، وقوة الإرادة، والوفاء والأمانة[1]. لكن هذه الأخلاق والصفات كانت متفاوتة بين

---

(١) عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن الندوي.

الأفراد والقبائل، وهي فردية لا جماعية، فهي ميزات أفراد دون أن تكون صفات تطبع مجتمعاً متماسكاً.

فمثلاً حبهم للمساواة كان يظهر على المستوى الفردي، لكن العصبية طغت عليه بصورته الجماعية، بما تحوي من تعصب، وحقوق الزعامة التي تقدم على كل شيء. وفي الصفحات الماضية رأينا كيف تعامل المرأة أو الفرد في القبيلة، لذا فإن هذه الصفات لا يمكن أن تعطي ثمرتها إلا حين تستنقذ مما ران عليها من ركام الجاهلية، وعاداتها الخبيثة «وربما كانت حكمة الله تعالى أن ينزل الرسالة على هؤلاء الناس وهم بهذه الصفات وهذه الحالة، حين كان الأميون يمثلون سفح الجاهلية الكاملة بكل مقوماتها الاعتقادية والتصورية والعقلية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ليُعرف فيهم أثر المنهج القرآني، وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر في كل ما عرفت الأرض من مناهج، وليرتسم فيهم خط هذا المنهج بكل مراحله - من السفح إلى القمة - وبكل ظواهره، وبكل تجاربه، ولترى البشرية - في عمرها كله - أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها إلى القمة السامقة، أياً كان موقفها في المرتقى الصاعد. سواء كانت في درجة من درجاته. أم كانت في سفحه الذي التقط منه الأميين»[1].

* * *

(١) انظر الظلال (مقدمة سورة النساء).

حَيَاةُ مُصْعَبٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ

نسبه ومكانة أسرته:

مصعب بن عمير - رضي الله عنه - ابن هاشم، بن عبد مناف، بن عبد الدار، بن قصي، بن كلاب. فهو قرشي الأصل، يتصل نسبه بفرع من فروعها المهمة: بني عبد الدار، وهذا يعني أنه كان من أسرة لها مكانتها في الجاهلية.

وكان قصي بن كلاب زعيماً لمكة وقريش، ولقد ولد له أربعة نفر وابنتان وهم: عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى، وعبد قصي، وتخمر وبرَّة، وأمهم حبّي بنت حُلَيل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرة الخزاعي، وكان قصي يقول: ولد لي أربعة فسميت ابنين منهم بإلهي، وواحداً بداري، وواحداً بي.

وكان قصي شديد الحب لعبد الدار لأنه كان مضعوفاً.

وبنى قصي داره، فسميت دار الندوة، لأنهم كانوا ينتدون فيها، فيتحدثون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم ويعقدون الألوية، ويزوجون من أراد التزويج.

وكان قصي مطاعاً في قريش، لا يخالفونه في أمر، وبقي تعظيمهم له حتى بعد مماته، ولقد وزع الوظائف بين أبنائه بعد إنشاء دار الندوة التي كانت مقراً للحياة العامة، ونظراً لحبه لعبد الدار فقد جعل له دار الندوة، والحجابة، واللواء، والرفادة والسقاية.

فأما دار الندوة، فلقد بقيت له ولولده حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار إلى معاوية بن أبي سفيان، فجعلها داراً للإمارة بمكة. وأما الحجابة فكانت له ثم صارت بعده إلى عثمان بن عبد الدار، ثم إلى عبد العزى بن عثمان، ثم إلى ابنه أبي طلحة ـ واسمه عبدالله بن عبد العزى ـ ثم إلى طلحة بن أبي طلحة، فلما فتح رسول الله مكة أراد دفع المفتاح لعمه العباس، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾(١). فدفع المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وكان قد أسلم في صفر سنة ثمان. وأما اللواء فإنه لم يزل في بني عبد الدار حتى كان لواء المشركين يوم بدر مع طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكان لواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير.

ولما أسلم بنو عبد الدار قالوا: يا نبي الله، اللواء إلينا، فقال ﷺ: **«الإسلام أوسع من ذلك» فبطل اللواء.**

---

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء.

فبنو عبد الدار من أهم بطون قريش لأنهم حجاب البيت الحرام، وهم القائمون على دار الندوة التي يجتمع فيها زعماء قريش، ولهم ميزاتهم الخاصة مثل دخولها صغاراً وكباراً - بينما لم يسمح بدخولها لغيرهم إلاَّ لابن الأربعين - وهم أصحاب الرأي في دار الندو، ولهم اللواء في الحروب؛ مما يجعلهم في مقدمة الصفوف وعلى رأس الجيوش في الحروب، وهذه الميزة التي جمعت لهم عدداً من الوظائف جعلتهم يعدون أبناءهم ليكونوا شجعاناً، ومن أصحاب الرأي والحزم، ولا يدانيهم في ذلك غير بني عبد مناف.

ومصعب بن عمير من هذه الأرومة الماجدة في نسبها، ولهذا فقد كان في ذروة نسب قريش، ومن المقدمين فيهم - كغيره من شباب هذا الحي - وهو مدين للحفاظ على هذه المكارم المتوارثة أمام أي طارق أو خطر داهم، وينبغي أن تكون نشأته وولاؤه وعصبيته كغيره من زعماء هذه العشيرة الذين يقفون بعناد وتعصب أمام أي جديد - كما حدث مع الإسلام - يمس هذه السلطات أو يسلبهم تلك المكرمات الجاهلية إلى جانب ذلك فقد نشأ في بيت غني من بيوتات مكة الثرية واكتنفته النعمة والترف من كل مكان، إلى جانب شخصيته الجميلة في الخَلْق والخُلُق.

وأما والده فهو عمير بن هاشم، ولا ندري شيئاً من أمره غير أنه ثري محب لولده، مدلل له أقصى غاية الدلال. وأمه خناس بنت مالك المطرِّف بن وهب بن عمرو بن حجير.

وهي المرأة التي عرفت بقوة إرادتها وصلابة رأيها، وبهيمنتها على أولادها، وبقسوتها وشدة تأثيرها في أسرتها. وهي مع ذلك تحب مصعباً حباً شديداً، وتنعم عليه بكل ما يهواه ويشتهيه في حياته الشابة المنعمة، خاصة وأنها كانت مليئة، كثيرة المال، تكسو ابنها أحسن ما يكون من الثياب وأرقه.

وأحيط مصعب برعاية الأبوين، وحبهما الشديد له، وعنايتهما وكلفهما به، حتى كان يعرف في مكة بأنه أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي[1] من النعال، والرقيق من الثياب، ويأكل الفاخر من الطعام.

واشتهر مصعب بأنَّه فتى مكة شباباً وجمالاً وسبيباً[2].

ويؤكد ذلك ما روي عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه نظر إلى مصعب بن عمير ـ بعد إسلامه ـ وعليه إهاب كبش[3] قد تنطّق به[4] ـ فقال النبي ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي نوَّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلة شراها بمائتي درهم، فدعاه حب الله

---

(١) النعل المنسوب إلى حضرموت وهو من أحسن النعال في ذلك الوقت.

(٢) السبيب: شعر الناصية والخصلة من الشعر.

(٣) الإهاب: الجلد.

(٤) تنطق به: اتخذه كالإزار.

ورسوله إلى ما ترون!![1]».

وقال رسول الله ﷺ عنه أيضاً: «ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة[2] ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير».

من هذا كله تتوضح صورة الشاب المرفّه مصعب في جاهليته، وهو جميل الطلعة، محبوب من والديه ذو لمة مدلَّاة، لا يلبس إلَّا جديد الثياب وأرقها، ولا ينتعل بغير الحضرمي من النعال، وبين يديه مال وفير ينثره كيفما يشاء، تكتنفه ثروة أبويه ورعايتهم وحبهم وحنانهم.

وشبابه الجميل بطلعته وخلقه أعطاه صورة نضرة رائعة فهو «رقيق البشرة، ليس بالطويل، ولا بالقصير».

وهل أدل على جمال طلعته من أن المشركين حسبوه رسول الله ﷺ يوم قتل في أحد، فصاحوا: قتل محمد! ولا شك بأنه كان قطب الرحى في أندية قريش، ومجمع شبابها، وسهرات رجالها ولهوهم وسمرهم.

لقب مصعب بمصعب الخير، وكان يكنى بأبي عبدالله، ولكن بعض المصادر تذكر بأن كنيته أبو محمد، وربما كان

---

(١) حياة الصحابة: (٢ - ٥٢٩).

(٢) اللمة من الشعر دون الجمة، سميت بذلك لأنها ألمت بالمنكبين.

يعرف بهاتين الكنيتين على عادة كثير من الرجال الـذين يشهرون بأكثر من كنية.

أخوته وأولاده وزوجته:

ذكرت الأخبار أن لمصعب بن عمير أخوين، أولهما: أبو عزيز بن عمير واسمه زرارة بن عمير بن هاشم، وأم مصعب وأبي عزيز خناس بنت مالك من بني لؤي. وكان أبو عزيز من أسرى بدر، حيث لم يكن قد أسلم حتى ذلك اليوم، وهو حامل لواء المشركين في بدر، ويقال: إن له صحبة وسماعاً من النبي، وروى عنه بعض الأحاديث، وممن حدث عن أبي عزيز نبيه بن وهب[1]. والثاني أبو الروم بن عميـر، وأمه رومية، فهو أخوه لأبيه، أسلم قديماً في مكة، وهاجر إلى أرض الحبشة في المرة الثانية، وشهد أحداً، وتوفي وليس له عقب، وقيل: إنه استشهد في اليرموك. وله أخت واحدة هي هند بنت عمير وأمها خناس بنت مالك وهذه هي أم شيبة بن عثمان.

أما زوجته فهي حمنة بنت جحش بن رئاب بن يعمر، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وهي أخت زينب بنت جحش ـ زوج رسول الله ﷺ ـ لأبيها وأمها ـ

---

(١) تذكر بعض الروايات ـ أنساب الأشراف وغيره ـ أن أبا عزيز قتل يوم بدر كافراً. وهذا خطأ كما قال ابن كثير والذي قتل هو أبو عزة.

رضي الله عنهما ـ وقد ولدت لمصعب ابنة اسمها زينب بنت مصعب، تزوجها عبـدالله بن عبدالله بن أميـة بن المغيرة، فولدت له مصعباً ومحمداً، وقريبة، وتزوج قريبة عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بـن هشام بن المغيرة، فولدت له حفصاً، وكـانت حمنة ـ زوجـة مصعب ـ قبـل زواجـه منهـا عنـد عبد الرحمن بن عوف الزهري ولم تلد له، فخلف عليها بعده مصعب الخير، رضي الله عنهم جميعاً.

وكانت حمنة محبّة لزوجها مصعب وفيّة له، روي أنها خرجت في أُحُد تسقي العطشى، وتداوي الجرحى. ولما انتهت المعركة وجاء النساء يسألن عن أزواجهن وأولادهن وأبنائهن، جاءت حمنة بينهن تسأل رسول الله ﷺ، فقال لها: «يـا حمنة، احتسبي خالك حمزة بن عبد المطلب»، فقالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله وغفر له»، ثم قال: «يا حمنة، احتسبي أخاك عبدالله بـن جحش» قالت: «إنَّا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله وغفر له»، ثم قال: «يا حمنة، احتسبي زوجـك مصعب بن عميـر». قـالت: يـا حـربـاه!! فقـال النبي ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان» وبعد استشهـاد مصعب تزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت لـه محمد بن طلحة السجَّاد، وعمران بن طلحة رضي الله عنهم.

وننتهي من هذا: أن مصعباً كان واحداً من أبرز شباب مكة المترفين، بل كان واحدهم المعلم في ترفه وجماله ونعمائه،

لا تشغله أمور العيش، فلا يشكو ضيق ذات اليد، بل يحظى بكل ما تشتهيه نفسه من أطايب الدنيا، فكيف يكون هذا الشاب في جاهليته إذن؟

لن يكون إلّا صورة عن شباب الجاهلية وفتيان مكة - لا سيما وهو المنعم المرفّه، الغني المدلل - وكل همّه مع الفتيان من مثله، الخمر واللهو والنساء، يمده في ذلك جاه عريض، ومال وفير، وشخصية محببة يُشار إليها بالبَنان.

فهو الفتى الجميل، صاحب اللباس الثمين الجديد، والنعال الحضرمية الفاخرة، والعطور المنعشة الغالية، واللمة الحسنة، والحلة الرقيقة والمال الوفير. يحضر نوادي مكة وملاهيها، ويكون قطب الرحى بين شبابها، تحبه النساء، وتهواه العذارى، وتحيطه نظرات المعجبين، فيقضي وقته لهواً وطرباً وشرباً، ويغرق في الحياة العابثة، لا يخاف رقيباً ولا يخشى أذاة، ولا يحسب حساب فقر. ويستطيع مع ذلك كله أن يفخر بنسبه ومكانة عشيرته، فهم سدنة البيت وحملة اللواء، وأصحاب الندوة، فلاغرو أن يتصدر مجالس قريش في نواديها، ويوم حجيجها، وفي كل مواقفها الخطيرة.

* * *

الدِّينُ الجَدِيدُ

الدعوة الإسلامية:

كانت مكة لاهية عابثة في أنديتها وأسواقها وبيوتها حين بدأت إرهاصات الدين الجديد تبدو في الأفق البعيد، وكانت يد الله الرحيمة تصنع للبشرية نبيها المنتظر، وتكلؤه برعاية فائقة، حتى لا تغشاه من الجاهلية غاشية، ولا تدخل في تصرفاته وتصوراته منها أية صغيرة[1].

---

(١) عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما يهم به أهل الجاهلية إلاَّ مرتين من الدهر، كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما ـ أي من فعلهما ـ قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة ـ لرجل من قريش ـ فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فنمت فما أيقظني إلاَّ مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى، مثل =

كل شيء كان مظلماً: العلاقات الاجتماعية التي لم تعد تحفل بحرام أو حلال، ولا تكترث بحق ضعيف أو مظلوم. الشرعة: شرعة التعصب والعنجهيـة والقوة. أمـا الضعفاء المساكين فليس لهم في هذا المجتمع صوت ولا رأي ولا حيلة بل ليس لهم إلّا الطاعة والأنين.

والأقـوياء سـادرون: يأكلون أمـوال الناس بـالبـاطـل، ويتـاجرون بـالحرام، ويسفكـون دم الأبريـاء، ويستحلون حرمات الله، ولا يألون جهداً في تثبيت زعاماتهم وسيطرتهم الباغية.

واليهود في يثرب: يتلاعبون بمصير من حولهم، يتآمرون مع هؤلاء على أولئك، ويحـرضون أولئـك على هؤلاء، ويتفرجون من بعيد كيف تثور الضغائن والأحقاد، ويقتتل الأقرباء والأخوة والأبعدون، ويتنازع الناس أمورهم، فيلجأون إليهم طالبين المشورة أو النصرة والعون، وهكذا يكون لهم المكان المرموق، ويحققون لسمومهم أن تسري في عقائد الناس وأوصالهم، ويأخذون أموال الناس، ويستغلونها أيما استغلال!

= ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ما هممت بعدها بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى كرمني الله عز وجل بنبوته. عن السيرة النبوية لابن هشام.

كل ذلك كان مظهراً للعقيدة التي كانت تسود هذا المجتمع وأي عقيدة هذه؟!

الأصنام: آلهة العرب المزعومة، قائمة في كل مكان، وبيت الله الحرام ـ الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ـ أصبح مقراً للأصنام والأوثان والخرافات، وأصبح مهوى للعبادات الباطلة من دون الله ـ عز وجل ـ وفي كل يوم يعصى الله في بيته، وتنتهك حرماته في الحرم الذي أقيم لطاعته.

ومعتقدات الناس هنا وهناك معتقدات باطلة فاسدة، لم تعد تؤمن بالله إلَهاً ورباً يقوم بأمر السموات والأرض، ويحكم من في السماء والأرض، ولم تعد تؤمن بأن البشر محكومون بإرادة الخالق العظيم، وعليهم أن يستمدوا ـ أبداً ـ منه معالم طريقهم الطويل في الأرض وإلى يوم الدين.

لقد سادت ـ إذن ـ حالة عصبية جاهلية، وأصبحت نفوس القوم ترفض الاهتداء بهدي الله، بل تكالب الناس على تنظيمات وتقاليد وعادات تخالف ما أنزل الله من نظام وأحكام.

وأضحت الجاهلية ليلاً يلف العرب والعالم، فالعرب يعبدون الأوثان، ويمارسون ألواناً من السلوك المنحرف، ويبطشون ببعضهم، وتحرص كل قبيلة على مصالحها وسيادتها، وتقف في طريق الحق والعدل من أجل هذه المصالح وتلك السيادة الزائفة، ولم يعد هناك شيء يحتمل ـ

فضلاً عن الجهل والتأخر والفوضى - لذلك كان لا بد من إيضاح الطريق الصحيح لهؤلاء الناس، وللبشرية جمعاء. وكان لا بد من وضع معالم جديدة لطريق طويل لا يضل فيه الناس، ولا تخطىء فضله فطرة البشر الأسوياء الذين يسيرون على درب الله.

وجاءت دعوة الإسلام: ديناً قيِّماً جديداً من لدن حكيم خبير، وكانت أسس هذا الدين واضحة بينة، تخاطب الكينونة الإنسانية كلها، وترفض تفسيرات العقل القاصر المحدود لهذا الوجود، وتحل محل تصورات البشر الضالة، التصور الرباني الشامل التام الكامل المتزن.

وجات معجزة الدين الجديد - القرآن الكريم - الذي بدأ يربي أمة كاملة على منهج جديد، على يد رسول الله - ﷺ - الذي أعطى من نفسه القدوة، بالجهد والتعب والصبر والجراح والمحن، قدوة في كل شيء وفي كل موقف، في المنشط والمكره، في خاص شأنه وفي شؤون الحياة العامة، وكان القرآن الكريم يتنزل على رسول الله - ﷺ - منجماً حسب مقتضيات الدعوة الجديدة، ليعالج قضايا حية واقعية، وليكون أشد وقعاً وأكثر واقعية وأعمق أثراً في نفوس الناس، وخاصة المؤمنين، وليعطي صفة الواقعية الحركية لمنهجه، ولمسيرة الدعوة، حتى لا تكون تعاليمه وثائق ميتة منسية، ولا نظريات خيالية باردة، ولا مثالية بعيدة عن الواقع، إنما كانت

تتحول حركة وعملاً عقب نزولها، وأوامر للتنفيذ فور تلقي المؤمنين لها[١]، وأضحى بعد ذلك نبعاً ثراً فريداً لا ينضب أثره، ولا تبلى جدته، ولا تفتقد حرارته وواقعيته إلى يوم الدين.

«وكانت القضية الأساسية التي حرص عليها القرآن الكريم، واستمر يوضحها للمسلمين على مدى ثلاثة عشر عاماً هي قضية واحدة لا تتغير: قضية العقيدة والتصور الصحيح، لأن سلوك الناس وحياتهم في كل زمن وفي أي شأن، تنبعث من تصوراتهم ومعتقداتهم، ولهذا كان الهدف الأول للإسلام كما جاء في القرآن الكريم توضيح قضية العقيدة وشرحها، وتنقيتها من الشوائب والشرك والأوهام التي تراكمت عليها، وكان يبين أيضاً مقتضيات هذا التصور، وكل ما يتعلق به في مدى هذه الأعوام الطويلة ممثلاً في قاعدته الرئيسية: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة»[٢].

ولم يشغل القرآن الكريم - وحاشا لله أن يفعل - بألهيات صغيرة: جنسية أو مادية أو اجتماعية، أو مطامح أخرى لا تعدو أنها نتائج للعقيدة، ولا تعد إلاَّ تطلعات جانبية لمجال واحد من الحياة، بل كانت قضية العقيدة هي القضية الرئيسية التي تتشعب منها كل القضايا الأخرى، لذلك ظلَّ يربي

---

(١) انظر معالم في الطريق لسيد قطب رحمه الله ص ١٣ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق ص ٢٥.

الناس عليها، حتى أحدث ذلك الأثر العظيم وربى ذلك الجيل الفريد.

فتعريف الناس بإلهhe الواحد، وربهم الحق، وخالقهم الحاكم المهيمن اللطيف الخبير، ثم تعبيدهم لهذا الإلـه العظيم وحده دون إشراك أو ضلال هو هذه القضية الواحدة.

والإسلام كان يستهدف من أجل ذلك إسلام العباد لرب العباد، وإخراجهم من عبادة العباد - في كل صورها وأشكالها - إلى عبادة الله وحده، وإخراجهم من سلطان العباد والأرباب الزائفة: في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم وتصوراتهم، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة. وهذا ما دعا إليه محمد - ﷺ - قومه والناس أجمعين، وهذا ما دعا إليه الرسل عليهم السلام، لذلك كان الإسلام صرخة في وجه الجاهلية والجاهليين، لإيقاظهم من رقود الضلال والانحراف والعودة إلى جادة الهدى، عبيداً لله طائعين. لتكون الحاكمية التي تنظم حياتهم، والمنهج الذي يحكم أمورهم، والسلطة التي تهيمن عليهم، هي تلك السلطة المهيمنة على الكون كله، سلطة الله عز وجل وحاكميته ومنهجه وربوبيته، فلا يشذون بمنهج وسلطان وتدبير غير هذا، ولا يحتكمون إلى منهج غير منهج الله.

إن الله فطرهم مسلمين، فينبغي أن يثوبوا إلى الإسلام -

أيضاً ـ بعقولهم وإرادتهم، فيضعوا شريعة الله منهاجهم، وتتناسق حياتهم في جانبها الفطري والإرادي، وتتناسق مع الكون المستسلم لله عز وجل بناموسه وقوانينه وهداه[1].

وشعر الجاهليون بالخطر الداهم عليهم وعلى سلطانهم حين بشرهم رسول الله بالدين الجديد، ورأوا في النفر القليل المؤمن خطراً على وجودهم أيضاً. فبدأت قريش ـ ممثلة للجاهلية في مكة ـ تتحرك خوفاً على سلطانها المهدد وخوفاً على مصالحها الفانية، وأخذت تقاوم الدين الجديد بكل الأسلحة المتوفرة: العصبية، الدعاية، السخرية، التسفيه، الشتم والإيذاء، الضرب والتعذيب، المطاردة والمؤامرات، القتل والحرب والتدمير، كل ذلك لأنها ـ كجاهلية ـ كانت تعلم أن انتصار العقيدة الجديدة معناه زوال طاغوتها وسلطانها، وانتزاع الحاكمية من يدها، وانتهاء استغلالها. وتحرير الإنسان المكبل بين يديها.

وشعرت الجاهلية بحركة الفطرة البشرية التي ران عليها ركام ضخم من فساد التصورات الباطلة والعقائد الزائفة والأوضاع المنحرفة، وشعرت بحركة الضمائر الإنسانية المعذبة التي رزحت طويلاً تحت سلطان الطاغوت الأرضي الجائر وقهر الجاهلية لها، وشعرت باندفاع الموجة الإسلامية

---

(١) انظر (مبادىء الإسلام) وخاصة الفصل الأول للأستاذ الداعية أبي الأعلى المودودي (رحمه الله).

المؤمنة لتكون مداً وثورة على هذه المعتقدات والأوضاع والسلطان الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وعلى كل الأوضاع القائمة على هذا الاغتصاب.

وكان دوي «لا إلّه إلاَّ الله» شعار هذه الدعوة، وشقها الآخر «محمد رسول الله» الداعي للتحرر من كل هذه التصورات والأوضاع، والعودة في كل أمر إلى الله ورسوله، والتلقي من هذا النبي المنهج الجديد. كان هذا الدوي يزلزل ركدة الحياة الآسنة في مكة والجزيرة أولاً وفي العالم بعد حين، ويحرك ما في النفس الإنسانية من أشواق نحو الآفاق العليا، نحو القوة المهيمنة الحقيقية التي لا يحدها أبد ولا أزل ولا أمد ولا زمان ولا مكان ولا نوع، وبدأت بذلك حياة جديدة تنمو وترقى وتتطور وتمتد: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[1].

وبدأ المؤمنون ـ واحداً إثر واحد ـ يتطهرون من رجس الجاهلية في كوثر الإسلام، ويصفو إيمانهم، ويتعمق في نار التعذيب في سبيل الله، حيث يخلعون على عتبات الإسلام الأولى كل الجاهلية، وبكل ما تعني هذه الكلمة الممتدة من عالم الضمير والفكر إلى عالم المادة، وشعروا أنهم عرجوا إلى سماوات رحبة

---

(١) الآية ٥٧ من سورة يونس.

فسيحة، لا يحدها الأفق القاصر، ولا النظر الكليل، ولا الإرادة المحدودة، ونظروا إلى ما في الكون من أشياء فشعروا بأنس ورحمة وحب ورضوان ندي طاهر، لأن الله فطرهم على فطرة الكون بتناسق وانسجام، وكان بينهم وبين هذا الكون ـ قبل إسلامهم ـ انقطاع وجفاء وصراع وضغينة وتخاصم، فغدوا أمناء وخلفاء وأصدقاء له، يحملون دعوة الله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لاتعلمون﴾(١) ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنَّه كان ظلوماً جهولاً﴾(٢).

موقف الجاهلية من الدين الجديد:

لم تقبل قريش الدعوة الجديدة، بل قامت الجاهلية بعنفها وعصبيتها وجبروتها وكل أسلحتها تحارب الدعوة الجديدة، قال ابن هشام في سيرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فلما فعل ذلك ـ أي ذكر آلهتهم وعابها ـ أعظموه، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلاَّ من عصم الله تعالى منهم

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

بالإسلام، وهم قليل مستخفون».

وبدأت الجاهلية تجمع قواها، وتجند أساليبها لتنقض على الإسلام والمسلمين، ولتخنق الدعوة في مهدها وتقضي على مكمن الخطر عليها، ولم يثنهم شيء عن القتل والحرب ضد الفئة المؤمنة الصغيرة، إلاَّ تقدير الله عز وجل، ثم خوفهم من عشيرة رسول الله ﷺ، التي حمته ولم تسلمه إلى قريش لتفعل به ما تشاء.

وابتدأت المحنة تنزل بالمسلمين الصابرين الصادقين، وبرسول الله ﷺ الذي كان القدوة الحقيقي للمؤمنين. قال ابن هشام: «ثم إن قريشاً اشتد أمرهم ـ للشقاء الذي أصابهم ـ في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه، فأغروا به سفهاءهم، فكذبوه، وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون.

ورسول الله ﷺ مُظهرٌ لأمر الله لا يستخفي به، مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم» هذا بعد أن سموه الأمين وأكبروا من صدقه ووفائه وأخلاقه.

ووصل بهم الأمر إلى أن «وثبوا إليه في الكعبة وأخذ أحدهم بمجمع ردائه، وأحاط البقية به، حتى قام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون

رجلاً أن يقول ربي الله؟ وقيل إنهم صدعوا فرق رأس أبي بكر مما جبذوه بلحيته».

ولكنهم ـ رغم كل عنفهم ـ لم يجدوا ضعفاً ولا تراجعاً من أحد من المسلمين، بل كان رسول الله ﷺ يقول لعمه موضحاً ثبات الدعاة إلى الله ثباتاً دونه كل ثبات: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته».

وظنت ـ قريش في حالة يائسة ـ أن هذه الدعوة نوع من المطامح التي يعرفونها في حياتهم المادية، لذلك اجتمع زعماؤهم عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس وفيهم عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وعبدالله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونُبَيْه ومنبِّه ابنا الحجاج السَّهميان، وأمية بن خلف، ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله سريعاً، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم به بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم ـ حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين،

وشتمت الآلهة وسفَّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلاَّ قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ـ أي الجن ـ فربما كان لك ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك».

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». «قالوا: يا محمد: فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليكم، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهاراً كأنها الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدَّقوك وصنعت ما

سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول». فقال لهم رسول الله: «ما بهذا بعثت إليكم». وأعاد عليهم ما قاله لهم من قبل، ومضوا هم يسألونه الإتيان بالمعجزات الكثيرة عناداً وسخرية، واتهموه بأنه يأخذ كلامه من رجل في اليمامة.

ولكن ذلك لم يزد رسول الله غير الثبات والإيمان ومعه القلة المؤمنة، لأن الدعوة أمانة من الله الذي بيده ملك السماوات والأرض، ولا خيار للمؤمن في تركها. وكان الجاهليون يتصورون الدعوة - طبقاً لمقاييسهم - سعياً وراء مال أو جاه أو ملك، أو مرضاً، أو نقصاً، لكن رسول الله ﷺ بيَّن لهم أن الدعوة غير ذلك، إنها منهج جديد للحياة يصل بين الدنيا والآخرة، وتحرير للإنسانية المعذبة من أغلال الطاغوت.

نماذج من حملة العقيدة:

لقد أعطت هذه العقيدة ثمارها في المجتمع، وحققت انقلاباً شاملاً في الشخصية الإنسانية، حيث أنقذتها من أوضار الجاهلية، ورفعتها من حضيض الهاوية إلى نور الإسلام وهداه، وكرامة الإنسان ومنزلته في هذه الأرض.

فالغلام الذي لا يحفل بغير اللعب واللهو والأحلام، غدا بفضل الإسلام ينظر إلى أفق بعيد، ويضع جبهته مع رسول الله على الأرض، فيشعر أنه اتصل بالقوة الكبرى، وعلا فوق

الأرض، وترفع عن كل سفاسف الكون ليلتقي بالخالق العظيم، وأضحى هذا الغلام يقف أمام والده، وأمام قومه وأمام الناس أجمعين معتزاً بإيمانه، صلباً قوياً واعياً واثقاً مطمئناً.

والمرأة التي لا يهزها غير الأحلام والمشاعر والمظاهر، وسخافات الدنيا وبهارج الأرض وزينة الحياة، هذه المرأة تتخلى بطواعية رفيعة وبسجية نادرة عن كل ما تملك، وتضع ذلك تحت تصرف الدعوة لتكون زاد الداعية الأول، وبيت مال الدعوة الجديدة في سبيل الدين الجديد، لإعلاء كلمة الله، وكسباً لرضاه، وهي تضرب بصدقها، وعمق إيمانها، ورجاحة عقلها، وعمق بصيرتها، وتفتّح وعيها، وثمرة إيمانها، أنموذجاً للمرأة التي حولتها شرارة الإيمان بهذه العقيدة الربانية إلى طراز رفيع من النساء، لم تشهد مثله البشرية حتى اليوم. وها هي خديجة ـ رضي الله عنها ـ تسمع من زوجها محمد ما رآه في الغار، وعلى وجهه علامات الخوف والتفكير والحيرة، فتقول له: «أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة».

وظلّت إلى جانبه، تثبته، وتطمئنه، وتدعوه للثبات والصبر، وتصدقه وتؤازره في أمره، فخفف الله بذلك عنه: «لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردٍ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلاّ فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه

وتصدقه، وتهوّن عليه أمر الناس. لذلك أمر الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يبشرها بالجنة: «أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

والتاجر الغني الذي يركض وراء المال من أجل الربح والكسب والغنيمة بأي طريق، تحول بفضل العقيدة إلى رجل يضع كل ماله في سبيل الله، ويعطي كل حياته من أجل العقيدة، وينظر إلى المال والكسب كشيء تافه رخيص في الحياة.

والعبد المظلوم الذي لا يعرف المجتمع له حقاً في الحياة الإنسانية الكريمة، ولا يأبه به أحد من زعماء الجاهلية، يشرى ويباع كالمتاع الرخيص، أضحى بالعقيدة الجديدة إنساناً حراً كريماً وبطلاً وقائداً وسيداً، يتحدى جبروت الجاهلية وطغيانها، ويقف في وجه عتوها وظلمها وتعذيبها، صابراً محتسباً لا يبغي غير رضوان الله.

وهكذا بدأ المجتمع الجديد: جديداً في عقيدته وتصوره، جديداً في إيمانه ومعتقده، جديداً في خلقه وسلوكه، جديداً في عاداته وتقاليده، جديداً في آماله وتطلعاته، جديداً في مودته وخصومته.

ومن أجل ذلك كانت الجاهلية بمجتمعها وتصوراتها وتطلعاتها وعلائقها، تهتز وتتخلخل تحت ضربات الصبر العظيم لطلائع الإيمان هذه الضربات الموجعة النافذة التي

كانت تحز في قلبها، وتقطع أوصالها، وتستنزف بقايا الدماء الفاسدة التي تغذيها.

وهذا بلال ـ كمثال على ذلك ـ في إيمانه، أصبح صبره وثباته أفتك بقلوب قريش وعقائدها وأشد عذاباً لها من الضرب والقتل بالسياط والرماح.

لقد كان صبره وثباته في درب الدعوة أمام ظروف قاسية، لا يرى فيها أملاً غير رضوان الله، ولا يبغي من ذلك نصراً دنيوياً أو فوزاً مادياً، وإنما يطمع في جنة عرضها السموات والأرض.

«لقد عَدَت قريش على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم، وكان بلال مولى لبعض بني جمح وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزَّى. فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد، أحد». وكان رضي الله عنه يقول: «والله لو علمت كلمة أغيظ لهم منها لقلتها».

وهكذا تكونت نواة من الدعاة المسلمين: مؤمنة أعمق ما يكون الإيمان، صادقة أفضل ما يعرف الصدق، صابرة أطول ما يُعهد الصبر، تخلَّت عن كل شيء من أجل رضاء الله وفي سبيل عقيدتها، وانتزعت نفسها من أتون الجاهلية لتخلد في جنات العقيدة، وعرفت مسؤوليتها في الأرض - جميعاً - كما جاء على لسان ربيع بن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة جميعاً أمام رستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة: «ما الذي جاء بكم؟ فيكون الجواب: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر».

وانطلقت هذه الفئة المؤمنة داعية إلى الله، نواة حركة قوية صلبة ثابتة، لا تزعزعها محن أو مغريات، ولا تحرفها عن هدفها ظروف أو أحوال، ولم تستطع وسائل الجاهلية وعنفها وتعذيبها أن تؤثر عليها، لأنها عرفت أن المصير بيد الله، والغاية هي رضاؤه وحده.

وعلى قدر هذا الثبات كان التعذيب، وكانت هجمة الجاهلية الشرسة التي تنوعت: التسفيه، والسخرية، والإغراء، والتهديد والتعذيب، والسجن، والمطاردة،

والحصار والقطيعة والقتل.. إلخ. ومر جميع المسلمين الأوائل بهذه المحنة العظيمة، والثابتون على طريق الإيمان، الذين برهنوا على إيمانهم بربهم بالصبر والمصابرة والجهاد، أصبحوا الدعاة الحقيقيين، وكان لا بد من هذه المحنة لفرز الضعفاء في إيمانهم المتخاذلين، الذي لا تبلغ العقيدة عندهم أعمق أعماق الحياة.

كان أبو جهل الفاسق يغري بكل من أسلم من رجال قريش، ويقول له: «تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفِّهنَّ حلمك[1]، ولنفيِّلنَّ رأيك[2]، ولنضعن شرفك» وإن كان هذا المسلم تاجراً قال له: «والله لنكسدنَّ تجارتك، ولنهلكنَّ مالك» وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبدالله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم. قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرِّ الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلٰهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعَل ليمرُّ بهم فيقولون

---

(١) نسفه حلمك: نهزأ بعقلك.

(٢) لنفيلن رأيك: أي لنقبحنه ونخطئه.

له: هذا الجعل إلٓهك من دون الله! فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده.

وعلى الرغم من كل هذه المحن بدأ المسلمون يتزايدون واحداً إثر واحد، ويلتقون برسول الله سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم ليتلقوا منه مبادىء العقيدة الجديدة، وليسمعوا ما تنزل من آيات، وليتفقهوا بأمور حياتهم على ضوء الدين الجديد. وأظهروا الدعوة وخرج أبو بكر - رضي الله عنه - حين لم يبلغوا إلا ثمانية وثلاثين رجلاً - إلى المسجد وقام في الناس خطيباً ورسول الله جالس، فدعا إلى الله ورسوله، حتى ضرب ضرباً شديداً، وأدمي، وغدا لا يعرف أنفه من وجهه وأشرف على الموت، وحمل إلى البيت وقد فارق وعيه، وحين عاد إليه الوعي وتكلم، سأل عن رسول الله وأقسم أن لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى يرى رسول الله، وذهبوا به خفية إلى دار الأرقم وهو يتكىء على أمه، فرق له الرسول ﷺ وأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون كذلك، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما بي من بأس إلَّا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها فادع الله لها، فعسى أن ينقذها الله بك من النار، فدعا لها رسول الله ودعاها إلى الإسلام فأسلمت[1].

---

(١) عن كتاب منهج التربية في القرآن لمحمد شديد. وأراد بالفاسق عتبة بن ربيعة.

هذه المحن القاسية صقلت إيمان المسلمين، وامتحنت عزائمهم وجعلت منهم دعاة حقيقيين، يقولون ما يفعلون، لأن قلوبهم آمنت حق الإيمان وتطهرت بنار العذاب من الضعف والنفاق، ونفوسهم صفت لله وحده بعد أن دخلت تجربة المحن.

وكانوا يعلمون أن هذه العقيدة وهذا الدين منة من الله سبحانه وتعالى: ﴿قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾[١] لأنها نقلة بعيدة بين ذلك المستوى الهابط الذي كان عليه العرب في الجاهلية، وهذا المستوى الرفيع الذي بلغوه بفضل الإسلام، وكما قال السير وليم مور: «لم تكن بلاد العرب قبل ظهور النبي على استعداد لتقبل أية هداية دينية، واتحاد سياسي، أو نهضة حيوية قومية، ولم تكن هناك أية بادرة ملموسة تشعر باستعدادها لتقبل شتى محاولات التنصير الوافدة عليها من مصر وسوريا، وكان أساس العربي هو الوثنية العميقة التي ثبَّتت قدميها على ممر القرون، وصمدت صماء لا يؤثر فيها شيء»[٢] ومع ذلك فقد وصلوا فيما بعد إلى مستوى رفيع لم يشهده العالم، ولن يشهده إلَّا بفضل هذه الدعوة.

* * *

---

(١) الآية ١٧ من سورة الحجرات.

(٢) عن كتاب محمد رسول الله لجودت السحار.

إسْلَام مُصْعَبٍ وتحمُّلُه المِحَن

في هذا الجو الممتلىء بالمحن والعذاب والدعايات حول دعوة رسول الله ﷺ، وفي المرحلة التي كانت قريش تضطرب اضطراباً عظيماً وتتهيأ للانتقام القاسي من الدعوة وأبنائها، كان مصعب يأخذ طريقه إلى رسول الله. وكان يشهد نماذج من الحوار الذي يدور بين رسول الله ﷺ وبين زعماء قريش، وتتفتح بصيرته شيئاً فشيئاً حين يرى عجز المنطق الجاهلي عن مقارعة الحق، وحين يسمع سخافات قريش ويرى عنادها عن رؤية الحق، رغم أنهم تبينوا صدق رسول الله وموقع نبوته، بما أتاهم من أدلة عقلية وغيبية: «وحال الحسد منهم له بينهم وبين أتباعه وتصديقه، فعتَوا على الله، وتركوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون»[١].

ثم بعد ذلك كان يرى زعماء قريش يمزقهم الشك والحيرة، ويقاومون دلائل الحق في نفوسهم حين يفجأهم الحق، ولقد بات أكثرهم عنجهية وعناداً وعداءً لدعوة الله

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام.

يستخفي عن العيون ليستمع إلى القرآن الكريم، ولولا عنادهم لآمنوا واهتدوا.. ولكنهم آثروا صحبة الشيطان، وأشاحوا وجوههم عن الحق.

«روى ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق، خرجوا ذات ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ـ وكل لا يعلم بمكان صاحبه ـ فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألاّ نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال له: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل

فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه، فقام عندها الأخنس وتركه»[1].

وكان مصعب يرى ويسمع كل يـوم مثل هـذا الطيش الأخرق والعناد الظالم، والجاهلية حوله بكل ما فيها من عقائد تافهة: أصنام، ومعبودات لا تنطق ولا تتحرك، وتخبط وتيه. والإنسان لا قيمة له ولا كرامة إلَّا بقدر ما يملك من السلطان والجاه أو المال. والتعصب والـطيش هو الـذي يتحكم في المجتمع وليس العقل أو التفكير، فأية قيمة لكل هذه المعتقدات؟ وأية قيمة لهذه المعبودات؟ وأية قيمة لهذه العقيدة التي تغير فيها وتبدل حسب ما يحلو لك وطبقاً لرغباتك؟

وأية قيمة لهذه العادات والأعراف في المجتمع ما دامت تتغير وتتبدل حسب أهواء السادة والزعماء؟

كل هذه الأمور كانت تثير في ذهنه تساؤلات كبيرة، وكانت تحفر في نفس الفتى الشاب المنعم أخاديد عميقة من التفكير والتعبير.

---

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام.

ولم يجد مهرباً من ذاته، لقد وصل الأمر إليه، وها هو يعاني صراعاً لاهباً بين موروثاته الجاهلية بكل ما فيها من نعمة وجاه، وحسب ونسب، ونفوذ وسلطان، ورفاه وتنعم، وبين كلمات محمد عن دينه الجديد!!

ولم يشعر بالطمأنينة، لم يشعر باستقرار قبل أن يجيب عن هذه التساؤلات، ها هو يرى الندوة التي أوكلت عشيرته بها تجمع المتناقضات، وتلعب فيها أهواء السادة؟ ويغمرها الطيش لا التعقل، والتعصب لا التفكير. وتثور فيها المنازعات، وتضيع الحقوق، وتقرر المظالم، لأن في هذا توافقاً مع رغبة المتربعين على قمة الأهرامات الجاهلية من القبائل والعشائر والبطون.

ورجع إلى بعيد فلم يجد واحداً من هؤلاء المعاندين للدعوة الجديدة قد أطاع الحق الذي تبينه، إذا ناقض مصلحته، ولم يجد مظلوماً لا تسنده عشيرته أو جماعة قوية قد توصل إلى حقه.

كل الجاهلية هراء وظلم وضياع، إنه بناء هش مهلهل، إنها فاقدة الروح والقيم، فاقدة الضمير والإحساس. هذه سماوات تتلألأ بمصابيح فتنة للناظرين. والقمر الذي يساير القوافل والسّارين في ليالي الصحراء الطويلة، نعم كل ذاك يثير في نفسه الشوق إلى تلك السماء، يثير في فكره النظر إلى بعيد، ويتعق في حبال الغيب إلى قوة مبصرة خارقة.

ويلتاه!! فما زال ابن الصحراء تائهاً وضائعاً بين الرمال، ما زال ذرة تائهة تافهة لا تنظر إلى السماء، لا تنظر إلى الأعلى وإنما ـ بسخفها ـ تبحث في الوطيء الوطيء من الأرض، عن أحجار تجعلها أرباباً تعبد. فأية مدارك هذه التي تساوي بين ركائز القِذْر والإِلّه المعبود؟ وسمع بالهمسات المندهشة في أندية مكة وبيوتها، وزادت الهمسات وأصبحت أحاديث يومية عن الأمين المبشر المنذر بدين جديد.

لقد كان مصعب يعرف محمداً من قبل، كما كان يسمع وجهاء قريش وفتيانها يثنون عليه وعلى صدقه وأمانته وعفته وأخلاقه ورجاحة عقله، وكم رنا إلى أن يكون مثيلاً لهذا الشاب الهاشمي من قبل. لكنه اليوم يسمع شيئاً آخر: همسات ضجرة، وأحاديث يملؤها الغيظ والحقد، وكلها تدور حول محمد ـ الأمين ـ الذي أثنت عليه مكة كلها ـ بالأمس ـ إنَّها أودعته كل أماناتها واختارته ـ بطواعية واستبشار ـ ليكون حكمها يوم تنازعت في وضع الحجر الأسود وكادت أن تهرق دماءها.

وتوالت أنباء الدعوة وكانت تزداد كل يوم، وقريش تزيد من موقفها العنيد ضدها، تعادي محمداً ودينه وتمنع الناس وتعذبهم لتفتنهم عن دينهم، فكيف به يستطيع أن يعلم أمر محمد!؟

ووقف محمد رسول الله ﷺ يوماً على الصفا، فهتف:

يا صباحاه! فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقيَّ!؟

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!!

فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلاَّ لهذا!!.

ثم قام. حتى نزلت سورة اللهب![1].

ولكن الناس هاجوا وماجوا، وتعجبوا من الأمر الجديد، وازداد اللغط بينهم، بين متعجب ومتكبر ومصدق ومتحير.

كيف يتركون آلهتهم! كيف يتركون حياتهم وينسلخون عن عاداتهم القديمة؟ لا، لا، لن يتنازلوا عن سلطانهم لأحد، لن يسمعوا لليتيم الفقير محمد، ولن يتركوا آلهتهم وعاداتهم حتى لو كان من أجل الله!.

وزاد صخب قريش ومن ورائها قبائل أخرى.

وأصغى للصوت قلة لم تسلم قيادها للشيطان والهوى ولم تركن لأصنام لا تضر ولا تنفع، وعلت آيات القرآن تتلى هنا وهناك، تتسرب في هدوء الليل وتسري مع انبثاق الفجر.

---

(١) عن الكامل في التاريخ لابن الأثير.

وأكلت الحيرة أكباد الآخرين فجاؤوا يصغون إلى هذا الذي يتلى، وترق قلوبهم، وتدمع عيونهم وتنهار عقيدة الجاهليين في نفوس كثير من القوم، وتبدأ الفطر السليمة باليقظة ودفع الركام الأسود الثقيل عنها، ويزداد خوف قريش على مصالحها أكثر وأكثر.

ومرة أخرى يفكر في أمر الدين الجديد، ويفكر في الحياة التي يعيش فيها هو وصحبه بين الأوثان والتقاليد، وها هو- مرة أخرى- يشهد أحاديث الزعماء والدهماء والشيب والشباب عن محمد، إنه يسمع ما يردده أكثر الجاهليين: «أجعل الآلهة إلَهاً واحداً» ووراء ذلك كل مصالح هؤلاء الناس وكل تشبثهم بقيم الأرض الفانية.

ويسمع زعيم الطاغوت أبا جهل وهو يقول: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه!!».

سباق على الدنيا، وحرص على الزعامة وتكالب على الجاه، وتشبث بمصالح فانية، هكذا يرى أبو جهل!! ثم سمع الوليد بن المغيرة- كبير قريش وحكيمها، وصاحب الرأي فيها- يخاطب قومه ويقول لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه،

وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً!!

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقلْ به.

قال: بل أنتم فقولوا وأسمع.

قالوا: نقول كاهن!!

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه[1].

قالوا: فنقول مجنون!!

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته[2]؟

قالوا: فنقول شاعر!!

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه[3] فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر!!

---

(١) زمزمة الكاهن: كلام خفي لا يفهم، وسجعه هو جعل الكلام ينتهي بنهايات كالشعر.

(٢) الخنق: الاختناق الذي يصيب المجنون. التخالج: اختلاج الأعضاء وتحركها بصورة غير إرادية. الوسوسة: ما يلقيه الشيطان في نفس الإنسان.

(٣) هذه الأسماء لأنواع من الشعر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقْدهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟!!

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجناه[1]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلَّا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك»[2].

منطق الجاهلية بتناقضه وسخفه وتهافته، إنه العناد رغم ابتلاج الحق، وانتكاس الضلال بعد رؤية ملامح الهدى، والتعصب والغي رغم علامات الدين التي لا يشوبها زيف أو وهم أو غموض. فأين العقل والحق والتفكير؟ هل وقفت قريش في وجه محمد ودينه إلَّا من أجل مصالحها،

---

(١) الغدق: (حسب إحدى الروايات): الكثير الشعب والأطراف. والغدق: كثير الماء. الجناة: فيه ثمر يجنى.

(٢) عن السيرة النبوية لابن هشام. وقد أنزل الله تعالى في الوليد الآيات: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً. وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنين شهوداً. ومهدت له تمهيداً. ثم يطمع أن أزيد. كلا: إنه كان لآياتنا عنيداً. سأرهقه صعوداً. إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال: إن هذا إلَّا سحر يؤثر﴾ (المدثر ١١ ـ ٢٤).

وعنجهيتها؟ فأبو جهل يخاف انتزاع الزعامة، ويؤثر الوجاهة والسلطة والمادة على الحق والهدى، فيضل ويشقى، ويعميه كبرياؤه حتى يغدو حاقداً طاغياً جباراً في الأرض.

والوليد بن المغيرة يقر بأن ما جاء به محمد من القرآن ليس بقول الكهان، ولا بقول السحرة، ولا بوسوسة الجنون، ولا بشعر الشعراء، أو فصاحة البلغـاء، ويقف في برزخ بين الضلال والهدى، ثم يعود إلى شفا جرف هار، ويدفعه العناد والجاه، وضغط الجاهلية حوله، وركام الضلال الذي أثبته في الأرض، وأثقله كي لا ينـطلق من قيـودهـا، فيعـود إلى الارتكاس في حمأة الضلال، ويبحث عن أقرب النعوت إلى القرآن ـ حسب ظنه ـ فيقول: إنه سحر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر!!

وأقاويل وأقاويل، لا أثر فيها للتفكير أو العقل أو المنطق، ولا وجود فيها لحكمة أو حق، كل هـذا حديث قـريش ونواديها، وهذه حججها ضد محمد رسول الحق، ودينه دين الحياة!.

أما في الجانب الآخر، فهناك الدلائل الباهرة التي لا يكذبها إلاَّ ظالم أو باغ أو مكابر، والتي تشهد على صدق هذا النبي صلوات الله عليه وصدق دعوته.

ماضٍ ناصع، ونشأة طاهرة تصنع على عين الله الحفيظ

العليم، وحاضر مشهود لا يقل نصاعة عن الماضي، كله يشهد أنه صادق.

وكلام لم ينطق به بشر، ولن يستطيع، فيه روح جديدة، فيه قوة تبهر العقل، وتمس الروح، وتستجيش أعماق الإنسان، وتحرك أشواقه إلى سماوات رحبة سمحاء.

والمؤمنون هؤلاء الصفوة الذين آمنوا بالدين الجديد، وانسلخوا من حمأة هذا الطيش الجاهلي الظالم، هؤلاء يصبرون على التعذيب، على الأذى والضرب والهزء والسخرية دون مطمع في جاه أو سلطة أو متاع!! ومن أجل أي مطمع يصبرون على كل هذا الأذى؟ إنهم يترفعون عن السيئات، ويتجنبون كل شر، وينأون عن الفحش والطيش والفساد، ويضربون للناس أرفع الأمثلة عن الإنسان، الإنسان الذي نفقده في كل مجال!!

إنَّهم كرام كرماء، رفعة في الخلق، سمو في النفس، وعزة في الحياة، وإباء عن الدنس، وصبر على الأذى، وتجلد عند المحن، وثبات على الحق، وطمأنينة بهذا الدين، ومعاملة فوق معاملة الناس أجمعين، فما الذي جعلهم كذلك؟

وأي فرق بين هؤلاء وبين أبي جهل والوليد بن المغيرة من زعماء قريش؟.

وظلت اللهفة تتأجج في صدر مصعب، ووميض الحق

يشتعل في نفسه وفكره، وصيحة الإيمان تصرخ به وتصيح، وتتوالى الأيام فتزيده يقيناً بأن هذا هو الحق، وأن هذه الدعوة هي دعوة الحياة، دعوة الله الحق، وأن ما دونه الباطل والزيف والضلال، ولا بد له أن يتحرر من قيود الجاهلية وضغوطها وروابطها المادية الفانية.

وعاد ليسمع آيات من القرآن الكريم، إنَّه غير كلام البشر، لغة عربية فصيحة، أَلِفَها لكنه لم يسمع مثلها، ذات نكهة خاصة، ومذاق جديد، وروح ساحرة هادرة بالحياة والحركة والقوة، إنها ذات رنين وعذوبة تحاكي أعمق أحاسيسه الدفينة، طرقات توقظ كل مشاعره وضميره وعقله وروحه وجسده، وتحيل الكون حوله إلى عالم يخاطبه، ويفتح عينيه على مشاهد ورؤى وآيات، كلها شاخصة متحركة باهرة: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم. كلا إن الإنسان ليطغى!! إن رآه استغنى. إن إلى ربك الرُّجعى. أرأيت الذي ينهى. عبداً إذا صلَّى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذَّب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى. كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدعُ ناديَه. سندعو الزبانية. كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾[1].

---

(١) سورة العلق.

وتراءت له صورة رسول الله وهو يسجد أمام المشركين يتحداهم، ويتراجع الضال الماكر[1] الذي يريد قتله، ويسمع مرة أخرى: ﴿والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق؟. النجم الثاقب. إن كل نفس لمَّا عليها حافظ. فلينظر الإنسان مم خلق؟ خلق من ماء دافق!!. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر!!. يوم تُبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر. والسماء ذات الرجع. والأرض ذات الصدع. إنَّه لقول فصل. وما هو بالهزل. إنهم يكيدون كيداً. وأكيد كيداً. فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾[2].

إنه الحق، إنها الحياة، إن السماء تتفتح عن نجوم وأضواء ضاحكة؟ كل شيء يؤنسني.

لكن مكة ما زالت في ضجيجها ولغطها وعنادها، لا بأس في ذلك، فالحق ماضٍ في الطريق: ﴿عم يتساءلون. عن النبأ العظيم؟. الذي هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون!!. ثم كلا سيعلمون!!. ألم نجعل الأرض مهاداً؟. والجبال أوتاداً؟. وخلقناكم أزواجاً؟. وجعلنا نومكم سباتاً؟. وجعلنا الليل لباساً؟ وجعلنا النهار معاشاً؟. وبنينا فوقكم سبعاً شداداً؟. وجعلنا سراجاً وهاجاً؟ وأنزلنا من

---

(١) هو أبو جهل.

(٢) سورة الطارق.

المعصرات ماء ثجاجاً؟. لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً؟. إن يوم الفصل كان ميقاتاً يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً. وفتحت السماء فكانت أبواباً. وسيرت الجبال فكانت سراباً!!. إن جهنم كانت مرصاداً! للطاغين مآباً!. لابثين فيها أحقاباً. لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً. إلاَّ حميماً وغساقاً. جزاء وفاقاً. إنهم كانوا لا يرجون حساباً. وكذبوا بآياتنا كذاباً. وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾[1].

الكون كله نداء: الأرض والسماء والجبال، كلها نداء للإيمان، الكون كله يسير، يضطرب، ما أحلى السماء والجبال والأرض، أين أنا يا الله؟ أأبقى ضائعاً في مستنقع الحياة الآسنة؟ أأقطع ما بيني وبين الأرض والسماء وهي تؤنسني وتناديني؟ أأتعامى عن الحق كي أتلظى بنار الضلال؟ لا. لا. إنني قادم، إنني أريد الحياة، أريد أن أجد نفسي وأحقق وجودي، وأحيي حقيقة إنسانيتي.. ومشى نحو دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وكانت دار الأرقم تقوم بجانب الصفا، ولا تبعد عن الكعبة كثيراً، وغدت بيت الإسلام الأول، ومنطلق دعوته، ومركز تجمع وعبادة للمسلمين الأوائل. يجتمعون فيها، ويتلقون دروس الإيمان، ومنهج الحركة الإسلامية الأول على يد

---

(١) سورة النبأ ١ ـ ٢٨.

رسول الله ﷺ، وفيها يجتمع صفوة مؤمنون، لم تجمعهم عصبية رعناء، ولا غنيمة مشتهاة، ولا مصلحة قريبة أو بعيدة من مصالح الأرض، فيهم أبو بكر وعلي وعثمان وبلال وعمار وياسر والزبير وطلحة وأبو عبيدة وصهيب، رضي الله عنهم أجمعين، وعلى وجوههم مسحة من النور، وفي محياهم ابتسامة الحياة والأمل، وفي نفوسهم طمأنينة الرضوان والحق.

ودخل مصعب ليكون واحداً منهم، جندياً وداعياً، ومجاهداً في سبيل الله، واستبشر الرسول ﷺ والصحابة السابقون بفتى قريش مصعب بن عمير.

روت لنا أخبار المسلمين الأوائل: «أن مصعب بن عمير لما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم، دخل عليه فأسلم، وصدق به، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله سراً[١]».

وكان من السابقين للدخول في الإسلام، خاصة وأنه هاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى التي كانت في سنة خمس من النبوة، وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة[٢]. والأرجح أن

(١) عن الطبقات الكبرى لابن سعد.
(٢) عن الكامل في التاريخ.

إسلامه كان في السنوات الثلاث الأولى للدعوة قبل أن يصدع رسول الله بالدعوة.

وأخفى مصعب إسلامه عن أهله كما كان يفعل المسلمون آنذاك، انسجاماً مع منهج الدعوة في بواكيرها، وطاعة لأمر الله في منهج حركتها، خاصة وأنه كان يشهد ـ كل يوم ـ ما تصنعه قريش بالمسلمين.

لكنه لم يستطع أن يخفي إسلامه إلَّا لفترة قصيرة من الزمن، لأنه لا يستطيع أن يمنع سيماء الإيمان من أن يظهر على وجهه وفي سلوكه وحياته.

فها هو ينسحب من حياة العبث والمجون، ويختفي من نوادي مكة ومن لياليها ومن بين شبابها، وأضحت فتيات مكة ترى منه إغضاء وحياء، وإعراضاً لم يكن لديه من قبل، ويعجب الشباب من مظاهر الجد والوقار الذي بدأ يكسو حياته كلها، وتحاول أمه أن تصل إلى ما يدور في نفس ابنها فلا تتمكن.

ومصعب يزيد في جد الحياة إمعاناً، وتلمح أمه آثار تفكير عميق وجد لم يلمّ فيه من قبل، وعزم صارم يكسو وجهه الجميل، وطمأنينة غريبة حولت عبثه إلى تعقل ووقار.

لقد كانت أيامه السوالف حلماً رهيباً وأشباحاً رعناء، وقد مضت ولم يعد بينه وبينها صلة، وغاب عن شباب مكة من

صحبه وعن أمه الصارمة تلك الروح الجديدة التي سرت في قلب مصعب، لقد أضحى في عالم غير عالمهم، وفي حياة غير تلك التي تعودها في بيوتهم وأنديتهم، ولقد ودعهم إلى الأبد فليس منهم - اليوم - وليسوا منه!!. فلا غرابة إذا انقلب عبثه إلى جد، وهزله إلى وقار، وطيشه إلى تعقل وحكمة، وأقلع عن مجتمع الجاهلية، وسهرات الصخب، وسمر الأهل، ولعب الخلان.

إنه أسلم!! وخطا أول خطوة في الإسلام يوم دخل دار الأرقم بن أبي الأرقم، ولينهي قصة الصراع المحتدم في نفسه، بين فطرته التي تفتحت للحق ورأت فيه روحها وأملها ومصيرها وطمأنينتها، وبين الجاهلية الصاخبة المتناقضة الهابطة التي تخيم على المجتمع، لقد دخل النور في قلبه فأضاء له الظلمات، وكشف عن وجه السماء الضاحك - لأول مرة - وصار يأنس بالقمر والنجوم، وبالأرض والسماء، بالجبال والوديان، بالشجر والطير، بالإنسان الذي كرمه الله ليكون خليفة في الأرض.

نعمة جديدة، ورضى شامل، ورحمة واسعة، وإنسانية حقة، وحياة كريمة طافحة بالخير، كل ذلك أطيب من فاكهة الجاهلية المحرمة، وألذ من نعيم الضلالة الظالمة.

ومن أجل ذلك خلع - إلى الأبد - على عتبة الإسلام كل جاهلية، كل جاهلية!!

مرحلة الإعداد والمحن والصبر

أسلم مصعب حين كانت الدعوة في مرحلتها الأولى تعاني الصعاب وتواجه عناد المشركين وأذاهم. وكانت أبعاد الصورة واضحة لديه يوم أسلم: الجاهلية بكل ما فيها ـ فضلاً عن حياته المترفة المرفهة ـ والدعوة الجديدة المضطهدة التي تعاني من الكيد والصد والعداء ما لا يحتمله إلاَّ المؤمنون.

لكنه أحس بفطرته التي نفضت عنها ركام التصورات الجاهلية الباطلة أن هذه الدعوة وحدها هي التي تحرر الإنسان من قيود المادة والأرض، وتطلق مواهب الإنسان وتفكيره لكي يجوب أرجاء الكون بأنس وتفتّح وبصيرة، وتربط بين الإنسان ـ على هذه الأرض ـ وبين القوة المبدعة المهيمنة على الكون كله، وتفتح ما بين الإنسان وما يحيط به من مخلوقات وأكوان، ليأنس بها ويجد بينه وبينها صلة الأنس والمحبة.

ولا شك ـ أيضاً ـ أنه كان يعلم تكاليف إسلامه، لا سيما وهو يرى انقضاض الجاهلية ـ بعصبيتها وجبروتها وحقدها ـ على القلة المؤمنة الصابرة، تكيل لها أنواع الأذى والتسفيه والمطاردة والتعذيب، ورغم هذا فقد علم أن لا خيار للإنسان في هذا الطريق، لأنها الحياة أو العذاب، الحق أو الباطل.

لذلك كان إسلامه إسلاماً واعياً، إسلام الصفوة المختارة من الرجال والنساء، الذين باعوا أنفسهم لله عز وجل يوم

كانت الدنيا في جاهلية كاملة، ويوم كانت الدنيا تنظر إلى هؤلاء القلة نظرة الحقد والكيد والأذى، وأنهم خارجون عن سلطانها، خارجـون عن إرادة قومهم، شـاذون عن منهج مجتمعهم ويوم كان الجاهليون يبحثون عن وسيلة يجتثون فيها القلة المؤمنة، ويطفئون نور الدعوة الجديدة: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[1].

وكان مصعب ـ رضوان الله عليه ـ «يعلم أن طريق الدعوة ـ في هذا الظرف وفي كل ظرف ـ طـريق شاق، محفـوف بالمكاره، مملوء بالصعاب. وأن النصر الذي وعد الله به عباده لن يأتي إلاَّ في موعده الخفي مع الغيب، وفق قضاء الله وقدره وحكمته، وهو غيب لا يعلمه إلاَّ الله».

«وكان يرى مشقات الطريق واضحة أمامه، مشقات من الأهـل والعشيرة، من الأب والأم والأخـوة، من الأقارب والأصدقاء، ومن كل الجاهلية التي تشعر ـ دوماً ـ بالخطر من وجود دعاة في أية بقعة من الأرض. وتأتي المشقة من الرغبة الملحة في نفسه ـ كداعية لله ـ في هداية الناس ونشر دين الله، وإظهار الحق الذي هداه الله له. هذه الرغبة التي لا

(١) انظر تفسير الآيتين ٨ و ٩ من سورة الصف في ظلال القرآن.

تستطيع أن تجد الأمر ميسوراً، وتلاقي الصدود والمكاره والجحود والإنكار، ويزداد البلاء وتزداد المشقة والمحنة».

«ولكنه - إلى جانب ذلك - كان مطمئناً إلى عقيدته، مطمئناً إلى رضوان الله الذي يفوق كل نعيم. وينسى الداعية كل ضر، فيستعذب الأذى ويستهين بالموت، ويبالغ في اليقين والثبات والصبر، لا سيما وأن الذين يصدون عن ذكر الله لم يفعلوا ذلك لأنهم لم يعرفوا الحق، وإنما كان جحودهم عناداً وإصراراً، واتباعاً للهوى والشيطان، بعد أن ران على قلوبهم الضلال، وسكرت أسماعهم عن سماع الحق، وعميت أبصارهم عن رؤية الخير، وأقفلت قلوبهم عن تذوق الإيمان، وأضحوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً»[1].

ولهذا فما عليه - وقد بايع الله على اتباع الحق - إلاَّ الصبر، ودوام التبليغ والمضي في الطريق، وتحمل المشاق. أما هدى الناس أو ضلالهم، استجابتهم أو صدودهم، فهذا خارج عن حدود واجبه وطاقته. فالهدى والضلال تابعان لسنة الله التي لا تتبدل: ﴿من يشأ الله يضله، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾[2] ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[3]. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يعفي الداعية ولا

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) انظر في ظلال القرآن وما كتبه مؤلفه رحمه الله عن هذه الآية في تفسير سورة الأنعام.

(٣) الآية ٣ من سورة الإنسان.

يعذره إذا قعد عن دعوته وتقاعس في تبليغها، أو داخله الخوف أو اليأس من صدود الناس وعنادهم وأذاهم.

وبهذا الوضوح كان مصعب يدخل دار الأرقم، ويبايع رسول الله ﷺ، ويحدد بذلك موقفه من الجاهلية، والجاهليين. فكان إسلامه بذلك نقطة مهمة في حياته، نقطة يخطو فيها خطوة الحياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى[1]. وكان إسلامه ـ أيضاً ـ صفقة رابحة مع ربه عز وجل، صفقة يبيع فيها لله سبحانه نفسه وماله ودنياه ابتغاء رضوانه وجنته: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويقتَلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[2].

وعرف من هذه البيعة أنه ينبغي عليه صياغة نفسه ومشاعره وشعائره وسلوكه وكل حياته، لتكون مؤهلة للتعامل مع الخالق ـ سبحانه ـ وفاء بالبيع، وقياماً بمقتضى هذا العهد المسؤول، ليستطيع تحقيق منهج الله في الأرض؛ عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله في

(١) انظر إلى تفسير الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ في ظلال القرآن تفسير سورة الأنفال.
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة.

الأرض على هدى من الله وبصيرة: ﴿التائبون، العابدون، الحامديون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، وبشر المؤمنين﴾[1]. وهذه هي صفات الداعية المؤمن، الحريص على رضوان الله، القائم بحق دعوته، وهي الصفات التي تحلى بها مصعب. فلقد تاب إلى الله وتبرأ من الجاهلية، وأقلع عن آثامها وشرورها، وهو عابد لله في ليله ونهاره وكل أعماله، لا يبتغي بها غير رضوانه، حامد لنعمه التي لا تحصى وفضله عليه بالحياة والإيمان والهدى، سائح في سبيل الله يبغي نشر دعوته، راكع ساجد بقلب خاشع يعرج إلى ربه ويسمو فوق أثقال الطين، آمر بالمعلوف وناه عن المنكر، داع إلى الله في حله وترحاله مع اعتبار مقتضيات المرحلة التي تمر فيها الدعوة والسبيل الذي يرسمه رسول الله، محافظ على حدود الله في كل أمر، فحقت له البشرى وحقت له الطمأنينة والرضوان.

وكان يعلم أن إسلامه سيقطع ما بينه وبين كل من بقي في دنيا الكفر، ولو كانوا أولي قربى، من أب وأم وأخوة وغيرهم، في كل شأن له مساس بالعقيدة، لا سيما وأنهم لن يرضوا به مؤمناً. فقد اختلفت وجهته عن وجهتهم، وتبدلت تصوراته ومعتقداته إلى شكل لا يروق لهم، ومن ثمَّ اختلفت

---

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة.

طريقه ومصيره عن مصائرهم. فالذين آمنوا هم أصحاب الجنة، باعوا من أجلها ومن أجل رضوان الله عز وجل كل شيء من دنياهم، أما الذين لم يؤمنوا بالله ولم يعقدوا البيعة مع الله وظلوا في آثام الكفر والشرك، فهم أصحاب الجحيم، ولا لقاء بينهما في دنيا ولا في آخرة.

إن تصوره وعقيدته الجديدة تقول له: «إن قربى الدم والنسب لا تنشيء رابطة العقيدة ووشائج الدين: (ونادى نوح ربه، فقال: ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال: يا نوح إنَّه ليس من أهلك! إنه عمل غير صالح! فلا تَسْأَلْنِ ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين)[1].

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلَّا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾[2].

«إن ولاء المسلم ينبغي أن يتمحص لله الذي باعه نفسه، وعلى أساس هذا الولاء الموحد للمسلمين تقوم كل رابطة وكل وشيجة، وهذا البيان للمسلمين يحسم كل شبهة، ويعصم من كل ضلالة، وحسب المؤمنين ولياً ونصيراً رب

---

(١) الآيتان ٤٥ ـ ٤٦ من سورة هود.

(٢) الآية ١١٤ من سورة التوبة.

العالمين، فهو مالك الملك: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إنَّ الله بكل شيء عليم. إنَّ الله له ملك السماوات والأرض، يحيي ويميت، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾[1]. لذلك كان إسلام مصعب مرحلة جديدة واستسلاماً نهائياً، وولاء كاملاً بكل طاقاته وإمكانياته لله سبحانه وتعالى، ولدعوته الممثلة في قيادة رسول الله ﷺ، ولمجتمعه الإسلامي الممثل في إخوانه المؤمنين. وانخلع بعد شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله من الولاء لأمه وأبيه، من إخوته وأسرته، من عشيرته وأصدقائه، من قبيلته وبلده. لقد انسحب بكل كيانه وحياته ومصيره من الجاهلية ليدخل في الإسلام، لأنه كان يعلم أن الجاهلية والإسلام ضدان لا يجتمعان أبداً، حتى وإن خفيت الجاهلية عن أعين الناس في قلوب المنافقين فلن تخفى على الله، وصاحبها في الدرك الأسفل من النار.

فولاؤه لمحمد رسول الله ـ ﷺ ـ قائداً، دون كل القادة والزعماء، وللمجتمع الصغير الناشىء الذي قام بقيادته حين وقف المجتمع الجاهلي يدفع عن وجوده الذاتي خطر هذا التجمع الجديد الخارج عليه، (قبل اللقاء في معركة حربية)، ويحاول سحق هذا المجتمع الوليد في نشأته، ولكن

---

(١) الآيتان ١١٥ ـ ١١٦ من سورة التوبة. وانظر ما كتب عنهما في ظلال القرآن.

المجتمع الجديد كان أقوى من ضربات الجاهلية، فقد آخى رسول الله بين أفراد المسلمين وتحولوا بذلك إلى مجتمع متكامل صلب، تقوم رابطة العقيدة فيه مقام رابطة النسب والدم، ويقوم الولاء لقيادته الربانية مقام الولاء للزعماء من الجاهلية.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله عن هذا المجتمع في كتابه الفذ «في ظلال القرآن» ما يلي:

«كانت ولادة الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة، فلم تكد الجاهلية - ممثلة في قريش - تحسس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة «لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله، ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله، ثم بالخطر الجدي من المجتمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ، هذا المجتمع الذي يدين - منذ اليوم الأول - بالطاعة لرسول الله، ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة.

«لم تكد الجاهلية - ممثلة في قريش أول الأمر - تحس بهذا الخطر وذاك؛ حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة وعلى المجتمع الجديد وعلى القيادة الجديدة، وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن

فتنة ومن حيلة. لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه.

وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه، كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد، وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد يتبع في تحركه قيادة جديدة، ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض».

«وعندئذٍ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان، ويومئذٍ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، والدينونة للقيادية الجديدة، إلَّا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان».

«وبذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي، فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها، وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى. وكان هذا النوع قليلاً، فقد كان الأمر كله معروفاً مكشوفاً من قبل، فلم يكن يقدم على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلَّا

العناصر الممتازة المختارة والفريدة التكوين، وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة والنادرة، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة من الأنصار»[١].

وكان مصعب واحداً من هذه القاعدة الصلبة الواعية التي أدركت طبيعة المعركة، وعرفت معنى الإسلام، وفهمت أبعاد النقلة الخطرة التي أقدم عليها، وتحمل في سبيلها العبء والمشاق والآلام حتى لقي وجه ربه. وكان طريق الإيمان واضحاً أمامه: صور من المعذبين المضطهدين، يحرقون بالنار، ويجرون بيد الغلمان في دروب مكة، ويضربون بالسياط، ويحرمون الماء والطعام والنوم، ويلقون أشد الأذى[٢].

وكتم مصعب إسلامه إذعاناً لأمر رسول الله آنذاك، ولكن أمره اكتشف بعد حين. لأن قريشاً كانت تترصد أولئك الخارجين عن سلطانها، لكي تعيدهم إلى حظيرتها، قبل أن يطغي المدّ الإسلامي ويكتسح جبروتها وطغيانها، فها هو

---

(١) انظر تفسير سورة الأنفال في كتاب ظلال القرآن.

(٢) اقرأ ما جاء عن تعذيب المسلمين في كتاب منهج القرآن في التربية لمحمد شديد، وفي كتاب حياة الصحابة الجزء الأول باب تحمل الشدائد، وغيرهما من الكتب.

مصعب يذهب إلى دار الأرقم بين الحين والآخر، ويؤدي عبادته ويتابع دعوته، وبينما كان يصلي رآه عثمان بن طلحة العبدري، فأشاع نبأ إسلامه بين قومه وأهله، وابتدأت بذلك مرحلة المحنة.

ولقد روى ابن الأثير ـ في أسد الغابة ـ خبر إسلامه فقال: «كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومن السابقين إلى الإسلام، أسلم ورسول الله ﷺ في دار الأرقم. وكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً، فبصر به عثمان بن طلحة العبدري يصلي، فأعلم أهله وأمه، فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوساً إلى أن هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأولى».

ولكن بقية الروايات تقول: «إنه ظل محبوساً إلى أن هرب وهاجر إلى أرض الحبشة»(١).

ولا نجد خلافاً بين الروايات في زمن إسلامه. حيث إنها تجمع على أنه كان من أوائل الذين أسلموا، وأنه دخل دار الأرقم بن أبي الأرقم في تلك الفترة السرية من حياة الدعوة، وكان يقوم بما عليه من عبادة وفروض وأمور الدعوة،

---

(١) الأعلام للزركلي، والإصابة، والطبقات الكبرى، وصفة الصفوة، والاستيعاب وتهذيب الأسماء واللغات.

حتى بصر به عثمان بن طلحة. وأكثر الروايات تتفق على أنه هاجر إلى الحبشة مع المسلمين الذين هاجروا بعد سجن وعذاب، وبعد أن ذاق ويلات المحنة القاسية.

فكيف كانت هذه المحنة وما مداها؟ وكيف واجهها مصعب رضي الله عنه؟ إن الذي نعرفه عن مصعب - وغيره من المسلمين الأوائل - أن إسلامه قلب حياته رأساً على عقب، لأنه طبقاً للتصور الجديد والعقيدة الجديدة، فقد تبدلت مقاييسه وتبدل سلوكه.

ولقد رأيناه يودع الجاهلية تماماً، فلم يعد من يوم إسلامه يُرى بين شبابها اللاهين، ولم يعد يحضر أندية مجونها وقصفها وفسادها، ولم تعد نساء قريش تجد عنده القبول في التعرض لها، ومبادلتها نظرات الإعجاب والغرام، ولم تعد آماله ومطامحه تتوافق مع آمال قومه ومطامحهم.

إنها جاهلية تقوم على الشرك بالله وعبادة الزعماء والتقاليد، إنها كفر وفساد وضياع.

وقد ودع كل ذلك إلى غير رجعة، ولن يملك بعد اليوم أن يعود خطوة واحدة إلى الوراء لأنه يشعر بأن جهنم تزمجر وتشهق وتتلظى، لقد ملأت العقيدة قلبه وفكره وحياته، وكانت له حياة جديدة بعد موت، وروحاً طلقة بعد سجن وعبودية وقيد. وملأ حب الله ورسوله كيانه، فنزع بذلك حب الدنيا وحب الناس من قلبه، وكانت هذه الآثار العميقة

الشاملة كافية لأن تظهره رجلاً جديداً بين قومه؛ فهل يستطيع أن يخنق مشاعره نحو النور الجديد الذي ملأ قلبه ودنياه؟!

هل يستطيع أن يخفي وهج النور الذي يشع من وجهه المشرق؟!

هل يستطيع أن يخفي عزوفه التام عن تقديس الأصنام والأوثان والمعبودات المزيفة؟! هل يملك أن يعود إلى مجون الجاهلية وضلالها ومباذلها وفسادها مع صحبه؟!

هل يملك أن يطيع أمه المتجبرة الغنية فيما تريد من ابنها الذي ترك عقيدتها الباطلة إلى العقيدة الصحيحة؟!

هل يطيق أن يسمع من زعماء قريش ترهات الجاهليين، وأباطيلهم ومكرهم برسول الله والعصبة المؤمنة؟!

بل هل يجرؤ أمام ربه الذي باعه نفسه وآمن به حق الإيمان أن يتراجع عن إيمانه ولقائه برسول الله والمؤمنين؟!

كل ذلك لم يكن مستطاعاً عند المؤمن الشاب الذي بايع الله على بذل نفسه وماله وروحه من أجل رضوانه وجنته، بعد يقينه بأن الدنيا لحظات عابرة بالنسبة للآخرة، وأن يوماً عند الله كألف سنة مما نعد. فأي قيمة للحياة الدنيا ولنعيمها أمام نعيم الآخرة وحسابها؟ وأية قيمة لأطايب الدنيا ورضاء الناس والأهل أمام رضوان الله ورحمته؟

أما من الناحية الأخرى، فقد كان إسلامه نقطة تحول أيضاً

وانتقالاً من حال إلى حال، يوم كانت الجاهلية لا تطيق أن ترى دعوة الله تزداد برجالها المؤمنين، وهي تعرف الخطر الكامن في الدعوة عليها والذي يزداد مع الزمن، لذلك شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة، وعلى التجمع الجديد، وعلى القيادة الجديدة، كما تفعل في كل مكان وفي كل زمان، واستعملت ضد العصبة المؤمنة الأولى كل أنواع الكيد والفتن والتعذيب، وتعرض جميع أفراد الدعوة لهذه المحنة والفتن والتعـذيب، حتى وصـل عنـد بعضهم إلى حـد الموت[1].

ولا بد لمصعب في انتقاله هذا من أن يواجه هذه المحنة أيضاً، ويجتاز الطريق الشاق العسير، ولا بد له من رؤية أنواع من المحن، لكي يُصقل إيمانه، ويصدق إسلامه، ويزداد يقينه على محك الشدة والمحنة: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليَعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾[2].

وحين علمت أمه وقومه بإسلامه ابتدأت المحنة، وتهيأ مصعب بكل صدق وثبات ويقين للصبر عليها والثبات أمامها، وكان رمز الداعية الصادق المؤمن الذي لم ينكث ببيعته، ولم

(١) انظر كتاب حياة الصحابة الجزء الأول ص ٣٨٥ وما بعدها.
(٢) الآيتان ١ ـ ٢ من سورة العنكبوت.

يركن إلى إغراء أو يلتفت إلى خوف. بل كان واحداً من ذلك الطراز الذي يسمو فوق كل أوهاق الأرض ومخاوفها ومغرياتها، فنالوا رضوان الله ـ عز وجل ـ وهو الفوز العظيم.

أنواع المحن وأبعادها وقساوتها

ولنعد إلى التاريخ لنعرف أبعاد المحنة التي نزلت بمصعب، كنموذج للداعية المسلم الذي يمتحن من أجل عقيدته، فيجتاز المحنة وينتصر على أعداء الحق، مهما كانت لديهم من وسائل التخويف والرعب والتعذيب.

وقبل ذلك لا بد من استحضار الصورة التي كان عليها مصعب قبل إسلامه، لنرى قساوة المحنة التي لقيها من الفوارق الضخمة بين حياته في الجاهلية وحياته في الإسلام.

قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: «كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً وسبيباً (جمال الشعر) وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأمتنه؟ وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يذكره ويقول: ما رأيت بمكة أحسن لمة، ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير».

وقال عليه الصلاة والسلام يوم رأى مصعباً قادماً وعليه قطعة نَمِرة قد وصلها بإهاب قد ردّنه ثم وصله إليها، فلما رآه

أصحاب النبي ﷺ نكسوا رؤوسهم رحمة له، ليس عندهم من الثياب ما يقدمونه له، فسلم فرد عليه النبي ﷺ، وأحسن عليه الثناء وقال: «الحمد لله ليَقْلب الدنيا بأهلها، لقد رأيت هذا (يعني مصعباً) وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله»[١].

وجاء في الروض الأُنُف للسهيلي عن مصعب: «كان قبل إسلامه من أنعم قريش عيشاً، وأعطرهم. وكانت أمه شديدة الكَلَف به. وكان يبيت وقعب الحيْس[٢] عند رأسه، يستيقظ فيأكل».

وجاء في حلية الأولياء عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبي إلى مصعب، فقال: «انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نوَّر الله قلبه!! لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون» وزاد كتاب كنز العمال: «ولقد رأيت عليه حلة اشتريت له بمائتي درهم، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون».

وأعطانا النووي صورة أكثر وضوحاً عنه فقال في تهذيب الأسماء واللغات: «وكان قبل إسلامه أنعم فتى بمكة، وأجوده

---

(١) طبقات ابن سعد في ترجمة مصعب.
(٢) القعب: قدح من خشب مقعر. الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط.

حلة، وأكمله شباباً وجمالاً وجوداً، وكان أبواه يحبانه حباً كثيراً، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب بمكة، وكان أعطر أهل مكة، ثم انتهى به الحال في الإسلام إلى أن كان عليه بردة مرقوعة بفروة».

صورة واضحة. فمصعب من حيث الرفاه والتنعم والجاه والمال والنعيم الدنيوي والعطف والرعاية والإعجاب بين قومه. في كل ذلك كان في الذروة الذروة، إلى جانب ما أعطاه الله من جمال في الطلعة، وروعة في الشباب، وجميل الصفات، وكريم السجايا، وسعة ذات اليد، ورفعة النسب.

لقد أجمعت الروايات السالفة جميعاً على أنه كان في ذروة شباب الجاهلية جميعاً في مكة وغيرها، خاصة وأن أبويه يحبانه ويكرمانه، ويبالغان في تدليله وتنعيمه ورعايته، حتى كان الطعام الجيد يوضع عند رأسه ليأكله حين يستيقظ، وهذا هو اللباس الجيد الفريد الناعم الجميل يشرى له من بعيد ليلبسه الفتى الذي أعجبت به مكة، وليكون فريداً في جماله وشبابه ولباسه، والعطر يفوح منه في كل حين.

صورة فريدة تمثل أبلغ ما وصلت إليه الجاهلية في الرفاه والنعمة والإسراف. فكيف يتبدل هذا الحال إلى الحال الآخر؟!

ها نحن نرى أن هذه النعم التي كانت تحيطه في جاهليته تنقلب نقماً من الجاهليين ضده. والرعاية والرفاه الذي تقلّب فيه قد تحول إلى محنة عصيبة، وفقر شديد، وظلم مجحف.

ولكنه مع ذلك فقد ارتفع بإيمانه السامق عالياً، ليحل محل كل هذا الذي افتقده من الجاهلية.

وكان يحس بشعوره الإسلامي الصادق وفطرته السليمة، حين يضع كل ما كان له في الجاهلية في كفه الميزان، وعقيدته الجديدة مع بؤسه وفقره ومحنه في الكفة الأخرى، كان يحس أن حاله الجديدة أفضل بكثير من زخارف الأمس الخاوي، ويمتلىء سروراً وطمأنينة وثباتاً.

ولنعد مع مصعب إلى صورته الجديدة بعد إسلامه، لنتصور بعد ذلك قساوة المحنة التي واجهها.

روى الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ؛ إذ طلع علينا مصعب بن عمير، ما عليه إلاَّ بردة له مرقوعة بفروٍ. فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان منه من النعمة والذي هو اليوم فيه، ثم قال رسول الله ﷺ: كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة، وراح في حلة، ووضعت بين يديه صحفة، ورفعت أخرى، وسترت بيوتكم كما تُستر الكعبة؟

قالوا يا رسول الله: نحن يومئذٍ خير منا اليوم! فنفرغ للعبادة ونكفي المؤونة، فقال رسول الله ﷺ: «لأنتم اليوم خير منكم يومئذٍ»[1].

---

(١) سنن الترمذي ـ باب المناقب.

وفي صحيح البخاري عن خباب أن مصعباً لم يترك إلاَّ ثوباً، فكان إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا به رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوا على رجليه شيئاً من الإذخر»(١).

وعند الحاكم عن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ جالساً بقُباء ومعه نفر، فقام مصعب بن عمير رضي الله عنه، عليه بردة ما تكاد تواريه، ونكّس القومُ (أي رؤوسهم) فجاء فسلم، فردوا عليه، فقال النبي ﷺ خيراً وأثنى عليه، ثم قال: «لقد رأيت هذا عند أبويه بمكة يكرمانه وينعِّمانه، وما فتى من قريش مثله، ثم خرج ابتغاء مرضاة الله ونصرة رسوله. أما إنه لا يأتي عليكم إلاَّ كذا وكذا حتى يفتح الله عليكم فارس والروم، فيغدو أحدكم في حلة، ويروح في حلة، ويُغدى عليكم بقصعة ويُراح بقصعة». قالوا يا رسول الله: نحن اليوم خير أو ذلك اليوم؟ قال: «بل أنتم اليوم خير منكم ذلك اليوم، أما لو تعلمون من الدنيا ما أعلم لاستراحت أنفسكم منها»(٢).

وروى عمر ـ رضي الله عنه ـ أن مصعباً كان يلبس إهاب(٣) كبش، قد تنطق به من أجل إسلامه(٤). وروى

---

(١) عن كتاب حياة الصحابة (٢ ـ ٣٥٠).

(٢) نقلاً عن حياة الصحابة (٢ ـ ٥٣٠).

(٣) الإهاب: الجلد.

(٤) عن سير أعلام النبلاء للذهبي ـ ترجمة مصعب.

سعد بن أبي وقاص عن المحنة التي أصابت المسلمين في مكة في حصار الشعب، فقال عن مصعب:

«فأما مصعب بن عمير فإنه كان أشرف غلام بمكة بين أبويه. فلما أصابه ما أصابنا لم يقوَ على ذلك، فلقد رأيته وإن جلده ليتطاير تطاير جلد الحية، ولقد رأيته ينقطع به فما يستطيع أن يمشي، فنعرض له القسي ثم نحمله على عواتقنا»(١).

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أُتي بطعام ليفطر - وكان صائماً - فجعل يبكي، وقال: قتل حمزة فلم نجد ما نكفنه به إلَّا ثوباً واحداً. وقتل مصعب بن عمير فلم يوجد ما نكفنه به إلَّا ثوباً واحداً. لقد خشيت أن يكون عُجِّلت لنا طيباتنا الدنيا، ثم أخذ يبكي(٢).

ويحدثنا السهيلي عن مصعب بعدما ذكر من حاله قبل الإسلام، فيقول: «فلما أسلم أصابه من الشدة ما غيَّر لونه، وأذهب لحمه، ونهكت جسمه، حتى كان رسول الله ﷺ ينظر إليه وعليه فروة قد رقعها، فيبكي لما كان يعرف من نعمته. وحلفت أمه - حين أسلم وهاجر - ألَّا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها. فكانت تقف للشمس حتى تسقط مغشياً عليها. وكان بنوها يحشون فاها بشجار - عود -

---

(١ - ٢) المرجع السابق.

فيصبون فيه الخشاء لئلا تموت». ثم صب عليه العذاب، وقيد في الأصفاد بعد أن كان حراً سيداً «فأخذه أهله وقومه، وحبسوه فلم يزل محبوساً إلى أن هاجر إلى الحبشة»[1].

وتجمع الروايات كلها على أن مصعب بن عمير أصابته المحنة القاسية بعد إسلامه، وكان كالعلامة الفارقة بين المسلمين لسعة الفرق بين الجاهلية والإسلام في حاله. ولكننا نرى من هذه الروايات أن مصعباً الذي يمثل الداعية المسلم كان يمر ـ اليوم ـ بمرحلة الإعداد. وكانت هذه الأيام القاسية دورة تدريبية بالنسبة إليه. أما دروس هذه الدورة فإنه لا يستلهمها على مقاعد الدرس، ولم يفهم أبعادها في بطون الكتب أو من سماع الخطب والمواعظ، أو رواية المشاهد الممثلة. إنما كانت الدروس واقعاً عملياً، كانت آلاماً مبرحة، وتعذيباً مستمراً، وفقراً موحشاً، وغربة مرة. وجوعاً قاسياً، وجراحاً دائمة، وأذى شديداً، حتى انتهى به الأمر إلى الشهادة. كل هذه الأمور كانت ضرورية للدعاة، وكانت ضرورية لمصعب لكي يشحذ إيمانه فلا يكون تجارة، وليمتحن صبره ويقينه فلا يكون نفاقاً، وليبتلي إسلامه فلا يكون طقوساً ومناسبات.

وإلى جانب كل هذا؛ لا بد أن نشير إلى الفرق الكبير بين

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة مصعب.

مصعب وغيره أيضاً، لأن شدة الفرق بين جاهليته وإسلامه كان عذاباً بحد ذاته ومحنة لا تستهان. علماً بأن كل صحابي آنذاك كان يمثل نموذجاً فريداً حسب فطرته وشخصيته وتكوينه الفكري والنفسي والخلقي. ومجموع هذه الفئة تمثل تلك الجماعة الفريدة والطراز الرفيع من الإنسانية، الذين بنوا للعالم قواعد الحق. فمصعب يريد أن يعطينا نموذجاً عن تربية الإسلام للمترفين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، الساعين وراء مظاهر الحياة. رغم كل ذلك، وقف بعد إسلامه قوياً لا يضعف ولا يتكاسل ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهواته فيسقط في جحيم النعيم الخادع. لا، إنه ودع ماضيه بكل ما فيه من راحة ولذة وهناءة، يوم دخل هذا الدين وبايع تلك البيعة.

وكان لا بد له من المرور في درب المحنة، لكي يصقل إيمانه ويتعمق يقينه «وهذه سنة الله في الدعوات، لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً، فتكون الدعوات هزلاً، فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌ بدعوة لا تكلفه شيئاً، أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً، فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من

الأدعياء، والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة».

«إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل: إما أن تربح ربحاً معيناً محدوداً في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة. والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية - والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في كل زمان أو مكان - ، يجب أن يوطّن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل، إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال، ويملكون استخفاف الجماهير، حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود، ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها، وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات. ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثيرة التكاليف أيضاً»[1].

ومع كل هذه التكاليف تشعر قلوب المؤمنين بالاطمئنان والرضى والاستبشار: «فهي تطمئن بإحساسها بالصلة بالله والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة وحَيْرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ

---

(١) انظر ظلال القرآن - آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام.

والمصير. وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضرر ومن كل شر إلاّ بما يشاء، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء. وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[١].

وكان مصعب مطمئناً راضياً، رغم ما حوله من جبروت ومخاوف، ورغم ما نزل به من البؤس والفقر والعذاب، ورغم ما فقده من مظاهر النعم والراحة والرفاه.

«إنها محنة كبيرة - لا شك - عندما يرى المؤمن ما حوله من مظاهر النعمة والمكانة والسلطان والشهوات، فيحرم منها من أجل العقيدة، ويعاني بعد ذلك شظف العيش، ويقاسي الحرمان والعذاب والجهد والمطاردة، حتى ليغدو المؤمن في حيرة قد تدفعه إلى التساؤل: كيف يعيش هؤلاء الكفرة في النعمة والمال والراحة مع كفرهم. بينما أصحاب الحق وحملة العقيدة يعانون الشقاء والعذاب والتنكيل على أيدي أولئك؟ ولكن يأتي نداء الله قوياً واضحاً مطمئناً، يشفي غلة القلوب، ويطرد وسوسة الشيطان، وتفوح رائحة الجنة: ﴿لا يغرنّك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾[٢]. وفي مقابل هذا المتاع القليل الذاهب: ﴿لكِن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها

(١) المصدر السابق - تفسير سورة الرعد.
(٢) الآيتان (١٩٦ - ١٩٧) من سورة آل عمران.

الأنهار، خالدين فيها، نزلاً من عند الله، وما عند الله خير للأبرار﴾(١) وكان مصعب يواجه كل أنواع المحن وهو مستيقن ـ دون أدنى شك ـ بأن الجاهلية كلها، والدنيا بما فيها من سلطان ونعيم ومال ولذة ومتاع إنما هو قليل وزائل، وبعده جهنم وبئس المهاد. أما رضوان الله فهو النعمة، وهو الراحة. وهو الخلد، ولا يصل إلى ذلك إلَّا بالصبر «زاد الطريق في هذه الدعوة، لأنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء والإيذاء والابتلاء. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالتها من قريب، والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم، وسوء تصورهم وانحراف طباعهم، وأثرتهم وغرورهم والتوائهم واستعجالهم للثمرات».

«والصبر على تغنج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتعاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء، والصبر على قلة الناصر وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق، والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة. من الألم والغيظ والحنق والضيق، وضعف الثقة ـ أحياناً ـ في

---

(١) الآية ١٩٨ من سورة آل عمران وانظر تفسيرها في الظلال.

الخير، وقلة الرجاء ـ أحياناً ـ في الفطرة البشرية، والملل والسأم واليأس ـ أحياناً ـ والصبر ـ بعد ذلك كله ـ على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرجاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله واستسلام لقدره، ورد الأمر كله إليه في طمأنينة وثقة وخشوع».

«والصبر على هذا كله ـ وعلى مثله ـ مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل، لا تصوره حقيقة الكلمات، فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة، إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها: انفعالات، وتجارب، ومرارات».

«ولا بد أيضاً من دوام الصبر، فإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق، فما أجدر الحق أن يكون أشد إصراراً وأعظم صبراً على المضي في الطريق».

«والتقوى لا بد أن تصاحب المصابرة والجهد والجهاد، فهي الحارس اليقظ في الضمير، يحرسه أن يغفل، ويحرسه أن يضعف، ويحرسه أن يعتدي ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هنا».

ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ إلا من يعاني مشاق هذا الطريق، ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة

المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات»[1].

وكان مصعب مثالاً لهذا كله. فقد كان صابراً أمثل الصبر وأوفاه، وكان مجهداً داعياً أحسن ما يكون المجاهد الداعية، وكان يقظاً تقياً في كافة أموره، وظل تقواه حارساً على سلوكه وتصرفاته إلى أن استشهد في أحد.

ولقد واجهته محن كثيرة هذه أهمها:

نماذج من المحن

١ ـ محنة الفقر:

فلقد رأينا كيف كان في جاهليته: غنى ورفاهية وتنعُّماً، وبذخاً في النفقة، ورعاية من الأبوين، وثروة تتيح له أن ينفق كيف يشاء. وها هو بعد إسلامه يغدو لا مال له ولا متاع، ولا بيت ولا لباس، بل عمدت أمه القوية المتعجرفة، إلى حرمانه من المال والثروة والمتاع لكي يعود إلى جاهليته، لكنه لم يفعل، وكان يعلم أن إسلامه سيكلفه الانتقال من ذلك الغنى إلى حالة الفقر والحرمان، ومن الرفاه والنعم، إلى الشظف والخشونة، ومن اللباس الجميل الرقيق إلى اللباس المرقع الخشن، ومع ذلك فقد تنازل عن كل هذا المتاع راضياً

---

(١) انظر الظلال ـ آخر تفسير سورة آل عمران.

مطمئناً، ولم تفتنه الثروة والرفاه، ولم تجذبه كل مظاهر الحياة الناعمة.

وليت الذين يفتنهم المال وتغريهم المادة في شتى العصور، يأخذون درساً من مصعب، حيث كان إسلامه هجراً للغنى ورضى بالفقر، وإيثاراً للفاقة والحرمان مع العقيدة، على النعم والرفاه مع الجاهلية، فكيف بالذين تغريهم المادة، ويفتنهم المال، فيغرقون في بهرج الحياة الدنيا، ويركنون إلى طيباتها، ويرضون بأطايبها عن كل ما عدا ذلك، وينسون عقيدتهم ودعوتهم. ويديرون ظهورهم لإخوانهم في طريق الدعوة إلى الله، ويخدعون أنفسهم بمظاهر ممسوخة من الإسلام، وصور شوهاء عن الدعوة، ويأنسون بالمال والراحة. إنهم حين يستسلمون إلى هذه الحياة يسقطون في طريق المحنة، ويرتكسون في حمأة الجاهلية، ويقتربون من صورة النفاق، ويضيعون عن درب الرشاد.

إن النعمة والمال محنة ربما كانت أقسى من محنة الفقر والفاقة، لأنها تخدع وتخفى، حتى يركن إليها المسلم، ويستسلم لأحلامها الشيطانية، ويخدع بمظاهرها الناعمة، ويسير فيها مع هواه.

وكم سقط في هذه المحنة أناس، وكم فشل بسبب ذلك من رجال، طالما ادّعوا الإيمان والوعي والصبر على مشاق الطريق.

٢ ـ محنة الجاه والمكانة:

وواجهت مصعباً محنة الجاه والمكانة، ومن مراجعة النصوص التي مرت بنا، نرى تلك المكانة الرفيعة التي كان يحتلها في جاهليته، لا سيما وأنه من عشيرة لها مكانتها الرفيعة في الجاهلية. فهم حملة اللواء، وأصحاب الندوة، وغير ذلك من مظاهر السلطة الجاهلية، ولا ننس مكانته بصورة ـ خاصة ـ بين شباب مكة وشباب بني عبد الدار، ومكانة أمه القوية الثرية. ومع ذلك فقد تخلى عن كل هذا الجاه الباطل بعد إسلامه دون تردد، وأصبح سجيناً مقيداً بعد أن كان سيداً كريماً عند قومه، ونزلت به أنواع التعذيب والإهانة والسخرية بعد أن كان المطاع الآمر الناهي، وحرم من العطف والاحترام والمعونة، ونبذ من العشيرة، وطورد في بلده وبيته وفي كل مكان. ولكنه لم يتردد في خلع هذا الرداء الخادع الذي يقوم على أساس من الشرك والباطل الذي لا يعادل عند الله جناح بعوضة، وأصبح مقياسه هو مقياس الإسلام والإيمان، الذي لا يأبه بدعاوى الجاهلية أو سلطانها أو باطلها لأنه طاغوت فارغ.

إن هذه الروابط التي تخلى عنها قد استبدلها برباط الأخوة بينه وبين المسلمين الصابرين المجاهدين، هذا الرباط الذي يقوم على أساس العقيدة الربانية، فيحفظ كرامة الإنسان، ويجمع طاقات أفراد هذا المجتمع المتآخي من أجل الحق

والخير للحياة الإنسانية عامة، ورفض العبودية للمال والجاه والعشيرة والقبيلة والسلطان الأرضي.

وكم يضيع رجال في هذا المنعطف الخطير كما ضاع عمرو بن هشام[1] الذي رفض عناداً وحباً في السلطة أن يؤمن، لأنه سيخسر هذا الجاه والمكانة والسلطان.

وكم يسقط ـ اليوم ـ أناس في هذا المنزلق الخطير رغبة في الجاه الزائل، وجهلاً بالقيمة الحقيقة في الحياة التي يوضحها التصور الإسلامي.

والداعية الذي يبايع الله بيعته الصادقة لن يكون وفياً في بيعته إذا لم يتخل عن وشائج الجاهلية وآثارها وضغوطها حينما تتعارض مع العقيدة، إن بقاء آثار الجاهلية في تصوره وسلوكه يمتص من دم إيمانه ومن سلامة تصوره ويقضي على إسلامه بعد حين.

٣ ـ محنة الأهل والأقارب والعشيرة:

ولقد علمنا من النصوص السابقة ـ أيضاً ـ كيف كانت أمه تبذل له كل ما من شأنه أن يدخل السرور إلى قلبه «وكان أبواه يحبانه ويغذوانه أطيب الطعام، ويلبسانه أجمل الثياب.. ويحضران له أجود ما تعرفه العرب من النعال»

---

(١) هو أبو جهل.

وظفر بمحبة لم يظفر بمثلها إلا القليل من أمه وأبيه وعشيرته، حتى كان الطعام يوضع له عند رأسه حتى يأكل حين يستيقظ. ولهذا كان إسلامه صدمة عنيفة لأمه قبل كل إنسان. وبدافع حبها الأعمى، وبدافع من نقمتها على عقوق ولدها - كما زعمت - راحت تصب جام غضبها على ولدها - العاق - الذي خلع عن كاهله محبتها لجاهليتها، ووصل بها الأمر إلى ترك الطعام والشراب والوقوف في حر الشمس، حتى خاف أولادها عليها من الهلاك. فكانوا يضعون في فمها الشجار، ويصب فيه الطعام لتأكل وتقوى على البقاء. إن خناس هذه المرأة العنيفة المرهوبة الجانب في الجاهلية، لمكانتها وقوة شخصيتها وثروتها، شعرت أنها فقدت ابنها مصعباً عندما أسلم، لأنها كانت ترى - كل يوم - كيف يتحول المسلم بين يوم وآخر إلى إنسان جديد، لا يأبه بروابط الدم والنسب حين تتعارض مع عقيدته وإسلامه، وأنه يضع حداً فاصلاً بينه وبين الجاهليين ولو كانوا أولي قربى وأبناء عشيرة.

وكان مصعب يعلم أن إسلامه سيجعله يفترق عن أهله، ويصوغ حياته على أساس العقيدة الإسلامية، وينظر إلى صلات المجتمع نظرةجديدة قائمة على الإيمان وطاعة الله، ونزع سلطان الأرض وأرباب الشرك وطاغوت الناس.

فالنسب اليوم غير نسب الجاهلية، وقانون القرابة والوشائج غير قانون الأمس، وبرز ذلك في تصرفه حتى بدأ يطمع

بهداية أمه، وطلب منها أن تخطو إلى الإسلام. لا أن يعود بخطواته إلى الجاهلية، لأن طاعة قرابته تعني طاعة الجاهلية ومعصية الله، ولقاء القرابة لن يكون إلا في صرح الإسلام وعلى أساس عقيدة الإسلام. ولم تستطع أمه أن تفهم ذلك، بل كادت أن تجن من ابنها مصعب وحين جاء من في المدينة من الأنصار ليبايعوا رسول الله بيعة العقبة الثانية ـ وكان مصعب معهم ـ ذهب تواً إلى منزل رسول الله ﷺ قبل أن يرى أحداً من الناس في بلده الحبيب مكة، وأخبر رسول الله بما عمله في المدينة. وهنا تعلم أمه بقدومه، فترسل إليه وتقول: «يا عاق: أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟! فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ».

وحين انتهى من إخبار رسول الله حول مهمته في المدينة، ذهب إلى أمه، فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد؟! قال: أنا على دين رسول الله ﷺ، وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولرسوله. قالت: ما شكرت ما رثيتك! مرة بأرض الحبشة. ومرة بيثرب. فقال: أفرّ بديني أن تفتنوني. فأرادت حبسه، فقال: لئن أنت حبستني لأحرضنّ على قتل من يتعرض لي. قالت: فاذهب لشأنك. وجعلت تبكي!!.

فقال مصعب: يا أمه إني لك ناصح، وعليك شفيق، فاشهدي أن لا إله إلا الله. وأن محمداً عبده ورسوله!.

قالت: والثواقب، لا أدخل في دينك فيزرى برأيي،

ويضعف عقلي، ولكني أدعك وما أنت عليه. وأقيم على ديني[1].

وهذه الحادثة تدل بوضوح على التغير الذي تفرضه العقيدة على الداعية المسلم، حين يرى أمه وأباه وعشيرته وأي قريب أو بعيد في جانب الطغيان والجاهلية، فلا بد حينها من ذلك الفاصل الحاسم بينه وبينهم كما فعل مصعب، لا سيما وأنه كان يسمع قوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا: أباءهم أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم»[2].

فهناك إذاً وشيجة واحدة تربط الناس في الله، فإذا انبتّت هذه الوشيجة، فلا صلة ولا مودة.

وهناك طريق واحد يصل إلى الله، وكل طريق آخر لا يؤدي إليه: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل، فتفرَّق بكم عن سبيله﴾[3]. وهناك نظام واحد هو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهو جاهلية: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[1] وهناك شريعة واحدة هي شريعة الله وما عداها فهو هوى:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ترجمة مصعب.

(٢) الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٥٠ من سورة المائدة.

﴿ ثم جعلناك على شرعة من الأمر، فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾(1) وهناك حقٌ واحدٌ لا يتعدد، وما عداه فهو الضلال: ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فأنى تصرفون ﴾(2).

وهناك دار واحدة هي دار الإسلام وما عداها دار حرب، ولا ولاء للمسلم بينه وبين أي دار غير دار الإسلام: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوا ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾(3). لذلك كان الإسلام قد رفع الإنسان، وبين له الهدى وخلصه من وشائج الأرض والطين، ووشائج اللحم والدم ـ وهي من وشائج الأرض والطين ـ ولذلك قامت الروابط بين المسلم وغيره على أساس الارتباط في الله، ولا جنسية له إلا عقيدته، وليست قرابة المسلم أباه وأمه وزوجه وعشيرته، ما لم تنعقد الآصرة الأولى في الخالق، فتتصل من ثَمَّ بالرحم، وإذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهم أخوة، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وهكذا بأسلوب القصر والتوكيد(4).

---

(1) الآية 18 من سورة المائدة.

(2) الآية 32 من سورة يونس.

(3) الآية 72 من سورة الأنفال.

(4) انظر إلى قصص الأنبياء في القرآن وخاصة قصة نوح مع ابنه، وإبراهيم مع أبيه، وقومه، ووطنه، ولوط مع امرأته، وأصحاب الكهف مع عشيرتهم =

ولكن لا بد أن المرء يعاني من هذه المفاصلة رهقاً وشدة كما عانى مصعب. فها هي أمه تجلس له في كل منعطف، وعند كل خطوة، تأخذه باللين والإغراء مرة، وبالقسوة والإرهاب مرة أخرى، وهي تحاول أن تمنعه من العودة إلى المدينة، ولكن مصعباً وقف موقفاً حاسماً ينبع من العقيدة. فحب الله ورسوله فوق حب الأم والأب والأخوة والأقارب والقوم والوطن عنده «وصلة العقيدة أقوى من صلة النسب والقرابة، وعلاقة الدين أمتن من علائق الأرض جميعاً في نظره، والله سبحانه وتعالى أراد من هذا الدين أن يقيم المجتمع الجديد على آصرة العقيدة وحدها، دون أواصر الجنس والأرض والبنين واللغة والمصالح الأرضية القريبة، والحدود الإقليمية السخيفة، وأراد إبراز خصائص الإنسان في هذا المجتمع وتنميتها وإعلائها دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان. وكان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة. وأن صُبّت في بوتقة المجتمع الإسلامي

= وقومهم ووطنهم. وامرأة فرعون مع زوجها، وسيدنا محمد ﷺ مع عمه أبي لهب. والمسلمين مع أقاربهم في بدر. وقول رسول الله عن العصبية: «دعوها فإنها منتنة. ليس منا من دعا إلى عصبية. وليس منا من قاتل على عصبية. وليس منا من مات على عصبية» وانظر معالم في الطريق فصل (جنسية المسلم عقيدته).

خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها، وانصهرت في هذه البوتقة، وتمازجت وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارةً رائعةً ضخمةً، تحوي خلاصة الطاقات البشرية في زمانها، مجتمعة على بعد المسافات، وبطء طرق الاتصال» (في ذلك المكان)[1] وعلى هذا فقد كان مصعب واحداً من أبناء هذا المجتمع، يشعر بأنه قد عرف خصائص الإنسان الحقيقية، وأقام الوشائج الجديدة على أساس العقيدة، فلم يعد ممكناً له أن يستجيب لنداءات العاطفة المتمثلة بالأبوة والأمومة، وأخوة النسب والدم وقرابة العشيرة.

ولم يعد ممكناً له أن يقبل هذه الوشائج القديمة، وهي تحرص على شركها وجاهليتها، لأنها تخالف المنهج الجديد الذي نوّر قلبه واختلط مع دمه، وكان موقفه من أمه وعشيرته وقومه ـ رغم الماضي الغني المرفه الذي عاشه ورغم الضغط القاسي الذي عاناه ـ موقف الرفض والقطيعة، وقبول التعذيب والمحنة، والصبر على المكاره والشدائد، لأن في ذلك طاعة الله وكسب رضاه وهو حسبه.

لم يدع لعاطفته أو مشاعر الحب الأبوي أن تؤثر على سلوكه، بل نزع من قلبه هذه المشاعر، فلم يعد ينظر إلى أمه

---

(١) انظر معالم في الطريق ـ فصل جنسية المسلم عقيدته.

بغير المنظار الذي رسمه الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾(١) وبغير هذه الطريقة لن يقابل أمه أو قرابته(٢).

٤ ـ محنة الجوع والتعذيب:

لقد عانى مصعب قسوة كبيرة من أهله وقومه إذ حبسوه، ومع السجن كان الجوع والتعذيب الجسدي، والإيذاء بالسخرية والتسفيه والاتهام.

وإذا كانت هذه المحنة صعبة على المسلم، فإنها أبلغ في الصعوبة عند مصعب، الذي تعود على الطعام اللذيذ والشراب المنعش، والخدمة الفائقة. فكيف به وقد انقلب به الحال من حياة مرفهة يوضع له الطعام المشتهى عند رأسه ليأكله عندما يستيقظ، إلى حياة التجويع والسجن مع التعذيب.

وكيف بهذا الجسم الذي تعود الراحة ونعومة الحياة ورقة العيش، وقد بدأ يُضرب ضرباً مبرِّحاً ويقيد؟ إن الجسم سيضعف والقوى ستنهار، والعزيمة تتلاشى، ولكن شحنة الإيمان المتوهجة، دفعت بمصعب لاقتحام هذه الصعاب

(١) الآية ١٥ من سورة لقمان.
(٢) سيمر معنا موقفه من أخيه أبي عزيز عند أسره، وراجع موقفه من أمه بعد عودته من المدينة.

والصمـود أمام الجـوع والفقر والضـرب والسجن، والقهر والتعذيب.

«وإذا كان الظالمون يملكون أن يخضعوا الشعوب بإفقارها وتجويعها وتعذيبها وسجنها ـ كما نرى اليوم ـ وإذا كان لهم أن يُعبِّدوا الناس إياهم من أجل لقمة الحياة، ومن أجل نجاتهم من التعذيب، فإن المسلم أقوى من عذاب الجوع، وأقوى من محنة القهر والتعذيب، وهو أصبر على الدنيا من كل إنسان، لأنه ينظر بعين إيمانه إلى ربه الكريم الذي يطعمه ويسقيه، ويعينه ويباركه ويقويه، وينظر إلى رضوان الله زاداً ونعمةً وبركةً أحلى على نفسه وأشهى على قلبه من طعام الدنيا وشرابها وطيباتها»[1].

وكيف يستطيع الجوع أو العطش أو التعذيب قهر المؤمن إن كان صادق الإيمان، وهو يرى ما أعد الله من النعيم للصابرين، وما أعد من العذاب للضالين المشركين؟.

ألا إن محنة الجوع والعطش والعذاب ما كانت لتنال من مصعب، حتى ولو بلغ به الجوع حداً جعله لا يقدر على المشي، ويترك جلده يتطاير عنه تطاير جلد الحية، فيضطر

(١) انظر حياة الصحابة (١ ـ ٧٨٤) قصة خباب وسجنه وطعامه الذي رزقه الله. وراجع باب تحمّل الشدائد والأذى والجوع والعطش من حياة الصحابة (١ ـ ٣٨٥) وما بعدها، وانظر كتاب معالم في الطريق أيضاً.

المسلمون لحمله على عواتقهم بعد وضعه على القسي[1]، ويتضاءل جسمه ويبدو عليه أثر الجوع والعذاب.

إن هذه المحنة أهون عليه من كل محنة أمام نعمة الإيمان نعمة الحياة في ظل الرضوان والرحمة الإلٓهية، والمسلم يستجيب لله طواعية، فيصبر على الجوع، ويصوم ويمتنع عن اللذائذ؛ كي يحتسب ذلك عند الله، وبذلك يهون عنده مثل هذا العذاب.

٥ ـ محنة الغربة والابتعاد عن الوطن:

ولا تقل محنة الغربة وترك الوطن عن غيرها، فما أصعب أن يضطر الإنسان إلى ترك بيته وبلده ووطنه والهجرة منه إلى مكان بعيد، لا يألفه ولا يعرفه ولا يأنس فيه. إن الإنسان روح وعقل ومشاعر، ولا يستطيع أن يتخلص من أحاسيسه ومشاعره التي حملها منذ طفولته إلى بلوغه سن الشيخوخة، والوطن يجمع كل هذه الذكريات حتى يشد أبناءه إليه بروابط ومشاعر وأحاسيس أقوى من مغريات المادة في كثير من الأحيان.

ولكن المسلم لا ينظر إلى الوطن بهذا المنظار المادي، بل يعتبر أن وطنه هو موطن عقيدته وأن الأرض كلها لله. وفي سبيل عقيدته لا بد له أن يتخلى عن مشاعره وعواطفه، بل لا

---

(١) انظر الصحيفة ١٠٣ من هذا الكتاب.

بد له أن يسوق هذه العواطف لتكون أكثر إحساساً ويقظة بالإيمان، وأكثر تعلقاً وشغفاً برحمة الله ورضوانه، وبذلك تصبح عقيدة المسلم هي وطنه أينما كان هذا التراب وأينما حط به الرحال، ويغدو أكثر سعادة وطمأنينة بدار الإسلام وموطن العقيدة من موطن المنبت وتراب الولادة.

ومصعب يضطر مرتين أن يودع بلده مكة، وفيها أهله وذووه وأقاربه وأصدقاؤه، ومواطن ذكرياته، وملاعب صباه، لينجو - فقط - بدينه وعقيدته وليحمي نفسه من الفتنة والارتكاس.

إن كل هذه الأشياء التي كانت عزيزة عليه، لصيقة بقلبه، أثيرة عنده، غدت هينة بسيطة يستطيع تركها والتخلي عنها، حين أصبحت خطراً يهدد عقيدته وإيمانه. وطاعة الله واللجوء إلى كنفه، واتخاذ السبيل إلى مرضاته، أكثر ضرورة ولزوماً من الحفاظ على التراب والمشاعر السالفة، والأحاسيس المدفونة.

وعلى هذا كانت هجرته للحبشة - مرتين - وهجرته إلى المدينة في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، تاركاً وراءه المال ومتاع الدنيا وزينة الحياة، مؤثراً الفقر والجوع والغربة، لا حباً في المال ولا رغبة في الثراء ولا حرصاً على الدنيا، كل ذلك من أجل العقيدة وطاعة لله ورسوله وتصميماً على مواصلة الدعوة. فكيف بأولئك الذين يتركون ديارهم

وأوطـانهم، ويتخلون عن دعوتهم، ويهـربون من معـركـة العقيدة، طلباً للثراء والرفاه، وحباً في الجاه وطيبات الدنيا، فيبنون القصور، ويبدلون مظاهر حيـاتهم، ويودعـون حياة الأسى ـ كيفما كانت ـ ليستقبلوا حياة التنعم والتلذذ بالدنيا، والتقلب بمظاهرها الخبيثة: «فمن كانت هجرتـه إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

عجباً ـ والله ـ كيف نفهم نحن المسلمين إسلامنا اليوم؟ وكيف نغمض عيوننا عن واقعنا وعن وقائع دعوتنا بالأمس؟ إن حياة رسول الله ﷺ تمثل لنا منهجاً واقعياً في الدعوة، وحياة الصحابة رضوان الله عليهم نماذج واقعية حية متحركة أمامنا في عسرها ويسرها، في منشطها ومكـرهها، في ضعفهـا وقوتها، في بؤسها ونعيمها. فكيف نهجر العمل إلى الراحة؟ ونؤثر القعود عن الدعوة، ونخاف الفتنة والتعذيب في سبيل الله؟ وننأى عن عمل الخير والأمر بالمعروف؛ طلباً للجاه وحرصاً على الدنيا وتكالباً على المادة!!

كيف يتفق ذلك مع إيماننا وكيف سنواجه غداً ربنا؟.

فلننظر إلى تلك المحن!! ولنعد إلى سيرة أسلافنا، لنرى

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان.

كيف واجهوا كل الفتن، وقاسوا أنواع العذاب، ولم يؤثروا كثرة الحرص والحذر على العمل والدعوة، ولم يهربوا إلى التبرير والتبجح والتظاهر فراراً من تبعات الإيمان!!

ومصعب ـ رضي الله عنه ـ هذا النموذج الذي فرَّ من المال والنعيم، والمكانة والوجاهة، والأهل والوطن، وطيبات الحياة ولذائذها، وسعة العيش ووفرة الثروة، والراحة والرعاية، إلى: التعذيب والجوع، والفقر والعطش، والتعب والسجن، والغربة والطرد، حتى بكى لحاله رسول الله ﷺ. كل ذلك ليؤكد معنى إيمانه، وليكون صادقاً مع الله في بيعته، وليحظى برضوان الله وطمأنينته.

ولا يستقيم إيمان لا يوقن بأن رضوان الله أشهى من طيبات الدنيا، وأن غرفات الجنة أحلى من قصور الدنيا، ولذائذ الفردوس أفضل من لذائذ الدنيا!!.

ولا يستقيم إيمان لا يوقن بأن غضب الله لا يدانيه عذاب، وأن محنة الحياة مهما كانت قاسية صغيرة صغيرة أمام عذاب الله. وأن كل الذي نعمله محاسبون عليه.

رحمك الله يا مصعب، ورحم الله الأسلاف المؤمنين، الذين حملوا رسالة الله، فأدوا الأمانة، وبلغوا كلمة الحق، وكانوا مع الله ورسوله.

نتائج موقف مصعب من المحن

ما هي النتائج التي نتجت عند مصعب وهو يواجه هذه المحن؟ وما هي الصورة التي يمكن أن نأخذها من موقفه؟.

١ ـ إذا عدنا إلى الروايات التي صورت حياته، وما جرى معه من أحداث ومحن، فإننا نرى أن مصعباً لم يزد مع هذه المحن إلا ثباتاً ورضىً وطمأنينة. فلم يكترث لنداءات الأم، ولم يضعف أمام ضغوطها المعنوية والمادية، ولم يخش من تعذيب العشيرة والأقارب والمشركين، ولم توهن نفسه الغربة المرة التي اضطر إليها ثلاث مرات. بل كان راضياً كل الرضى، مطمئناً أعمق الاطمئنان، ثابتاً أقوى الثبات حين مضى إلى ربه مؤثراً رضاه ـ سبحانه وتعالى ـ ومفضلاً الثوب المرقع على الثياب الناعمة، وكسرة الخبز والصوم على الطعام اللذيذ، مما جعله يحظى بتلك المنزلة الرفيعة، التي أهلته للمهمة العظيمة ـ مهمة الداعية ـ التي كلفه بها رسول الله ﷺ فيما بعد.

٢ ـ وكان من نتائج هذه الضغوط ـ أيضاً ـ تعلم الصبر خلال المسيرة الطويلة، تعلمه دروساً في الواقع والتطبيق العملي، لا بالقول والادعاء والنظريات. هذا الصبر الذي لا ينفد، ما دام يتعلق بهدف سام، ويسعى إلى غاية أبعد من حياة الأرض.

٣ ـ ورغم كل الضغوط وأنواع التعذيب والمطاردة، فإنه

ظل صابراً محتسباً، حتى فشلت هذه الضغوط في زلزلة إيمانه، أو النيل من صبره وثباته، وهذا ما ينبغي أن يتحلى به الدعاة إلى الله الذين يواجهون الجاهلية في كل مكان وفي أي زمان، ولقد أمده الصبر بزاد كبير في دعوته للأنصار في المدينة، حتى أثمر الصبر هدى وذخراً للإسلام، في داره الجديدة (المدينة المنورة).

٤ ـ ومن هذه الثمرات أيضاً زيادة الثقة بالله، والمثابرة الدائمة على الدعوة وفي طريقها، حيث تعلّم من اجتياز هذه المحن «أن الله سبحانه وتعالى مع أوليائه ودعاته، خطوة بخطوة، وذراعاً بذراع، وحركة بحركة، لأن شراسة الجاهلية التي انقضتْ عليه وعلى إخوانه من المسلمين: سخرية، وتعذيباً، وقتلاً، وتشريداً، لم تثمر غير أفواج جديدة من المسلمين، وانتصارات جديدة للدعوة بعدما ثبت دعاة الإسلام في دروب المحن وعلى صعاب الطريق».

٥ ـ إن ثقته بالله ـ أيضاً ـ هي التي جعلته يثابر على طريق المشاق الدامية دون أن يستبق الخطا، أو يتطلع إلى النتائج الدانية التي تأتي في الطريق. بل كانت ثقته بالله تعطيه التصور الصحيح لطبيعة الدعوة ولمراحلها وواقعيتها، بحيث يبذل كل ما في طاقته حتى يتغير لونه؟ ويذهب لحمه، وينهك جسده، ويبكي لتبدل حاله رسول الله ﷺ، ويتطاير جلده تطاير جلد الحية، دون ضجر من هذه المشقات ودون ضعف من بُعْدِ

الشقة وطول السفر، بل كان يؤمن أن النصر الحقيقي هو العمل المتواصل لكسب رضاء الله والفوز برحمته ومحبته، وأن الإيمان لا يكتمل بغير المحنة، وأن النصر قدر من الله، ومنحة من نعمه. أما واجبه كداعية، فهو مواصلة الطريق، والإثم كل الإثم في الضعف أمام المحن أو ترك الدعوة.

٦ ـ ومن هذه النتائج التي نلمحها من خلال هذه المرحلة، أن الداعية المسلم ـ مصعباً ـ كان يتمتع بوعي كامل لما يدور حوله في مجتمع الجاهلية، ووعي كامل لما يسعى إليه المشركون من تعذيبه وامتحانه، لذلك لم يقبل مساومة أمه، أو إرهاب قومه، لأن في ذلك تركاً للعقيدة، وانحرافاً عن طريق الله.

وكان وعيه يتجلى في فهمه الصحيح للعقيدة الجديدة، ولما تتطلبه هذه العقيدة منه ومن كل مسلم في الحياة: من تبدل في علاقاته الاجتماعية، ونظرته إلى الأمور، وسلوكه في المجتمع

ولهذا وجدنا مصعباً يتمسك بأوامر الله عزّ وجلّ تمسكاً تاماً، فهو يأخذ من رسول الله ﷺ ما ينزل من آيات لينفذها ويطبقها، ويحولها سلوكاً يومياً، وأوامر عملية في الحياة[1].

---

(١) انظر الفصول التالية في كتاب معالم في الطريق لسيد قطب رحمه الله: (جيل قرآني فريد، طبيعة المنهج القرآني، نشأة المجتمع المسلم) وانظر بحث جولة مع الرعيل الأول من كتاب منهج التربية في القرآن لمحمد شديد.

وظهرهذا الوعي في دوره الذي قـام به في المجتمـع الجديد، حيث كان يؤمن بأن المجتمع الإسلامي الجديد لا يمكن أن يتحقق بمجرد القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم، إذا لم يتمثلوا في مجتمع عضـوي متناسق متعاون، له وجود ذاتي مستقل، يعمل أعضاؤه عملاً عضوياً كأعضاء الكائن الحي على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه. ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي ومقاومته وإزالته.

ولقد كان ولاء مصعب للمجتمع الإسلامي ولاء كاملاً، كما كان عضواً متحركاً فعالاً مؤثراً في هذا المجتمع، ينفذ ويبني وينشىء، ويدعو إلى الله بوعي كامل وعلى بصيرة وهدى من الله.

* * *

والآن لا بد من وقفة قصيرة أمام الدافع الذي دفع مصعباً، الشاب المنعم، صاحب المال والجاه والمكانة والشرف، والندوة واللواء والحجابة، والتعطر والجمال والرعاية والحب والإعجاب.. لا بد من وقفة أمام الدافع الذي دفعه إلى ترك كل هذا، وتعريض نفسه إلى هذه الحياة القاسية؟.

إن الإنسان ليس حيواناً لا يهمه غير الطعام والمسكن والشهوة الجنسية، وتاريخ الإنسان ليس هو تاريخ البحث عن

الطعام. بل الإنسان ذلك المخلوق المكرم، الذي رفعه الله بالعقيدة إلى هذا المستوى الكريم ليجعله خليفة في الأرض.

وحين تتحكم بهذا الإنسان قوانين الأرض الجاهلية، وتتحكم به مناهج البشر القاصرين الجاهلين، حينذاك تتراكم فوق فطرته تصورات خاطئة وأوضاع ضالة، وتسحق كرامته في سعيه وراء الأهداف الذاتية من المال والجاه والمتاع والسلطان، ويقع الظلم والجور والفقر والصراع والفساد.. إلخ، وتعيش طبقة على حساب الآخرين، ويحرم الإنسان من أدنى حقوقه الإنسانية في الحياة، ويغدو آلة بلهاء في يد طواغيت الأرض، ويتقلب بنيران الصراع والقلق والبحث عن الطمأنينة، كما عانت جاهليات الأمس وكما تعاني جاهليات اليوم رغم كل ادعاءاتها وتبجحها وأقاويلها.

وهذا ما شعر به مصعب في جاهليته؛ لذلك ترك كل هذه المظاهر المادية وتخلى عنها بطمأنينة ورضى، وانتقل بثبات إلى حظيرة الإسلام، حظيرة الحياة والإنسانية الحقة، وهذا وحده هو الذي جعله يشعر بإنسانيته، ويسعى إلى هدف يستحق العناء والجهد والبذل والمشقات.

والإسلام ـ وحده ـ بمنهجه الرباني هو الذي حفظ كرامة الحياة في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني، الإسلام وحده هو الذي

استجاب لنداءات الإنسانية المعذبة الضائعة في يد طواغيت الأرض وقوانينها. «أما الذين يعدلون عن منهج الإسلام إلى أي منهج آخر يقوم على أية قاعدة أخرى، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة إلى آخر هذا النتن السخيف، فهم أعداء الإنسان حقاً. وهم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله، ولا يريدون لمجتمعه أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله. ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق، وهم الذين يقول الله سبحانه في أمثالهم: «﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين، أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً. ذلك جزاؤهم جهنما بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴾[(١)].

لذلك فقد وجد نفسه حن أسلم، ووجد إنسانيته يوم تخلى عن جاهليته ليستجيب لنداء الله. وبذلك كان نموذجاً عن إسلام الداعية المسلم، الذي يفهم معنى شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويعرف حدود ذلك، فيقيم علاقاته بالناس والمجتمع والدنيا على أساس العقيدة، ويبدل من حياته وشخصيته وسلوكه وهدفه طبقاً لقاعدة التصور

(١) الآيات ١٠٣ ـ ١٠٦ من سورة الكهف.

الرباني التي تصنع القيمة الحقيقية للإنسان... وبذلك ـ وحده ـ كان داعية ومجاهداً.

هجرة مصعب وصحبه إلى الحبشة

لقد واجه المسلمون الأوائل حرباً ضروساً من الجاهلية التي كانت تحيط بهم من كل جانب، وتنقض عليهم بالإيذاء والتعذيب والتسفيه والسجن والمطاردة. واشتد الأمر على كثير منهم حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ما يلقون، وأرادوا منفذاً وطريقاً يسلكونه تخلصاً من هذا العذاب، وبحثاً عن قاعدة يرسخون فيها أقدامهم، وينطلقون منها لتحقيق رسالتهم في العالم.

روى ابن هشام عن زياد بن عبدالله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي قال: (فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم. فكانت أول هجرة كانت في الإسلام)(١).

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام.

وخرج المسلمون متسللين سراً، وكانوا أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة. حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي. وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبيء رسول الله ﷺ «وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة». ووفق الله المسلمين ساعة جاؤوا، فوجدوا سفينتين للتجارة حملتهم إلى أرض الحبشة بنصف دينار، ثم خرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركب المسلمون، فلم يدركوا منهم أحداً، ووجد المسلمون في الحبشة خير جار لهم، أمّنهم على دينهم، فعبدوا الله دون أذى من أحد أو شيء يكرهونه.

وكان المهاجرون هم: عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي بن كعب ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سَبرة بن أبي رُهْم بن عبد العزَّى العامري، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وسهيل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر، وعبدالله بن مسعود حليف بني زهرة.

وكانت هذه أول قافلة تهاجر في سبيل الله عزّ وجلّ، وتخرج من بلدها ـ التي كانت أمناً للناس وسلاماً ـ تاركة الأهل والمال والمتاع، قاصدة أرض الله لكي تأمن على

دينها، وتحفظ عقيدتها وإيمانها، ولكي يقيم أبناء هذه القافلة شعائر الله دون ضغط أو إرهاب من طغاة الأرض.

وكان مصعب بن عمير واحداً من هذه القافلة المؤمنة، التي رضيت أن تعذب وتطرد وتغترب وتهاجر في سبيل الله، لنصرة عقيدتها، ومواصلة دعوتها لله سبحانه وتعالى.

وإذا قرر مصعب مع بقية المهاجرين ترك مكة، فلم يكن ذلك خوفاً من العذاب، وضعفاً أمام الطغاة، وإنما كان ليستطيع هؤلاء إقامة شعائر الله دون قيد أو منع، ولتبليغ الدعوة بحرية. فدار الهجرة هذه مناخ يصلح لنشر الدعوة، وإقامة شعائر هذا الدين في ظل ملكها العادل. لا سيما وأن عذاب الاغتراب والبعد لا يقل ـ أبداً ـ عن محنة التعذيب والضرب والسجن. لكن الفرق بين هذا العذاب وذاك، أن عذاب الاغتراب يتيح لهم القيام بواجبهم من العبادة والدعوة، بينما تعذر عليهم ذلك في مكة من السجن والمراقبة والتعذيب.

وإذا عدنا إلى سبب الهجرة ـ كما ورد في جميع الروايات ـ نلمح الأمور التالية:

١ ـ لقد رأى رسول الله ﷺ ما ينزل بأصحابه من التعذيب والفتنة وأنواع الأذى والبلاء، وهو معافى من ذلك ـ لمكانه من الله سبحانه وتعالى، ومن عمه أبي طالب ـ وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، فأشار عليهم بالخروج إلى الحبشة تخلصاً من هذا البلاء والعذاب. وهذا أبلغ ما نجده

من اهتمام القائد بجنده ومساواتهم بنفسه، واهتمامه بهم كاهتمامه بشؤونه الخاصة به.

٢ ـ ونلمح أيضاً أن الغاية الأولى من الهجرة، لم تكن الهرب من العذاب. بل هناك ما يشير إلى غاية أبعد وأكثر أهمية: «وقدمنا أرض الحبشة، فجاورنا بها خير جار، أمِنّا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذي، ولا نسمع ما نكرهه»[١] ولكن الغاية هي إيجاد القاعدة الأمينة التي تمكنهم من إقامة مجتمعهم الجديد. ومما يزيد هذا الأمر توضيحاً كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، الذي يدعوه فيه إلى الإسلام.

وظل رسول الله يفتش عن قاعدة أكثر أماناً، عندما لاحقت قريش المهاجرين إلى الحبشة، وحاولت إغراء النجاشي بهم. يقول سيد قطب رحمه الله تعالى ـ حول هذا الأمر ـ: «ومع استمرار دخول أفراد في الإسلام، على الرغم من جميع الاضطهادات والتدبيرات، فإن الدعوة كانت تعتبر قد تجمدت فعلاً ـ في مكة ـ وما حولها، بموقف قريش منها، وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل، مما جعل بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار، في ارتقاب المعركة بين الرسول وقبيلته وعلى رأسهم أبو لهب وعمرو بن هشام وأبو سفيان بن حرب وغيرهم، وما كان هنالك ما يشجع العرب في بيئة قبلية لعلاقات القرابة عندها وزن كبير، على الدخول

---

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام.

في عقيدة رجل تقف منه قبيلته هذا الموقف، وبخاصة أن قبيلته هذه هي التي تقوم بسدانة الكعبة، وهي التي تمثل الناحية الدينية في الجزيرة.

ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ ـ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرية، ويتاح لها فيها أن تخلص من هذا التجميد التي انتهت إليه في مكة. حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة. وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة.

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة عدة اتجاهات. سبقها الاتجاه إلى الحبشة حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل. والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر ـ إذن ـ أقل الناس جاهاً وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا. إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم ـ في بيئة قبلية ـ ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين، منهم: جعفر بن أبي طالب ـ وأبوه وفتيان بني هاشم هم الذين كانوا يحمون رسول الله ﷺ من أذى قريش ـ ومنهم الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة

المخزومي، وعثمان بن عفان الأموي. . وغيرهم. وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة. وما كان الأذى لينالهم أبداً.

وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى: فإثارة هزة في أوساط البيوتات الكبيرة في قريش، وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم فراراً من الجاهلية، تاركين وراءهم كل وشائج القربى، في بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً عنيفاً، وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم الجاهلية وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها، ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة. وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة، ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إشهاره نهائياً إلا ثورة البطارقة عليه كما ورد في روايات صحيحة(١).

العودة من الحبشة والهجرة الثانية

لم تمض إلا أشهر قليلة على هجرة مصعب وصحبه للحبشة ـ حيث مر شهر رجب وشعبان ورمضان ـ حتى توالت

---

(١) عن ظلال القرآن. مقدمة تفسير سورة البقرة.

إليهم الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام، وتركوا أهله أحراراً، وأن الإيذاء القديم انقطع، فرأوا أنه لا بأس عليهم إن عادوا، وقد برح بهم الشوق، وأمضتهم الغربة رغم العدل والأمان.

وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين، فقرروا العودة إلى بلدهم مكة، حتى إذا اقتربوا من مكة، تبينت لهم الحقيقة المحزنة، وعرفوا أن المشركين أشد ما يكونون من الخصام لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن عنادهم وعدوانهم لم ينقطع. ولذلك لم يدخل أي واحد منهم إلا متخفياً أو بجوار، فدخل عثمان بن عفان بجوار أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، ودخل أبو حذيفة بن عتبة بجوار أبيه، ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة، ثم رفض هذا الجوار فيما بعد، ودخل مصعب بن عمير بجوار النضر بن الحارث بن كلدة، وقيل إنه دخل بجوار أبي عزيز بن عمير أخيه، ودخل كثير من المسلمين غيرهم بجوار رجال من قريش.

وكان قدوم المسلمين إلى مكة في شوال سنة خمس من النبوة. ثم هاجروا للمرة الثانية بعد أن لقوا من المشركين أذى كثيراً، وبعد أن زاد التنكيل بهم، وسجن بعضهم، واشتد عليهم قومهم، فأذن لهم رسول الله ﷺ مرة ثانية بالهجرة إلى الحبشة، ورأوا في خروجهم هذا مشقة وألماً كبيراً. وأرادت قريش منعهم من ذلك، ولكن المسلمين بدأوا يتسللون نحو

دار الهجرة الأولى. قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: يا رسول الله، فهجرتنا الأولى، وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا؟. فقال رسول الله ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله وإليَّ. لكم هاتان الهجرتان جميعاً». قال عثمان: «فحسبنا يا رسول الله».

وكان عدة من هاجر في هذه المرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب. وأقام المهاجرون هناك في أحسن جوار، وأتاح لهم النجاشي كل حرية وطمأنينة في عبادتهم وحياتهم، فكانوا عنده في أمن من عدوان المشركين وبغيهم.

وتحركت مشاعر أحد المسلمين هناك نحو مكة، ونحو إخوانه الذين ظلوّا تحت لهب العذاب، فقال شعراً يذكِّرهم إخوة العقيدة، ويصف الحبشة دار الأمن والطمأنينة دون أن يذكر ماله وأهله وذويه وعشيرته من المشركين. قال:

يا راكباً بلغِّنَ عني مُغَلْغَلةً
من كان يرجو بلاغ الله والدين(١)
كلَّ امرىءٍ من عباد الله مُضطَهدٍ
ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعةً
تُنجي من الذلِّ والمخزاة والهونِ

(١) المغلغلة: الرسالة التي ترسل من بلد لآخر.

فــلا تـقيمــوا على ذل الـحيــاة وخــز
ي في الممــات وعيـبٍ غيــر مــأمــون
إنــا تـبــعــنــا رســول الله واطَّــرحــوا
قــول النبـي وعــالــوا في الـمــوازين[1]
فـاجعـل عـذابـك في الـقـوم الـذين بغَـوا
وعــائــذٌ بــكَ أن يَـعلُوا فـيــطُغــوني[2]

ولكن قريشاً لم يرق لها أن يخرج عدد من رجال الدعوة إلى بلد من البلدان الآمنـة حتى يتقـووا، ويتمكنـوا في الأرض، ويقيموا مجتمعهم في بقعة ما، ومن ثم يتكاثروا، ويعودوا إلى مكة ليلقوا بالأصنام والطغيـان إلى الهاويـة، ويدكوا معاقل الكفر والجاهلية.

«هذا وإن الجاهلية ـ أينما كانت وفي أي زمن وجدت ـ يؤذيها أن تقوم دعوة الله في أية بقعة من الأرض، لذلك فهي تنقض على الدعاة بوحشية وحقد بالغين، وتستعمـل كل الأساليب الممكنة لسحق الدعوة والدعاة»[3]. وإن في خروج هؤلاء الرجال الثمانين إلى الحبشة خطر كبير. ولا سيما أنهم أمثـال مصعب بن عمير بـإيمـانهم، وثبـاتهم، وصبـرهم، وإخـلاصهم، ونشـاطهم وفيهم: عثمـان بن عفـان، وأبـو

---

(١) عالوا: خانوا.
(٢) الشعر لعبدالله بن الحارث نقلاً عن سيرة ابن هشام.
(٣) في ظلال القرآن.

عبيدة بن الجراح، وعثمان بـن مظعون، والمقداد بن عمرو، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

لذلك فما كان من قريش ـ التي خشيت من نتائج هذه الخطوة ـ إلا استخدام سلاح آخر، فيه من المكر والدهاء والمكيدة، أكثر مما فيه من العنف والرعونة. لذلك أرسلوا إلى النجاشي وفداً فيه رجلان من خيرة رجالهم، وأكثرهم دهاء وهما: عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وذلك ليردوا المهاجرين، ولينكلوا بهم من جديد.

وذهب وفد قريش ليقابل النجاشي يحمل الهدايا للبطارقة والأعوان في قصر النجاشي، ثم قابلوا النجاشي وقدموا له هدية فاخرة، وقالوا له: «أيها الملك، إنه قد ضوى[١] إلى بلدك منا غلمان سـفهاء، فارقـوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه. لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم. فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه».

ولكن النجاشي العادل، أبـى أن يسلمهم أو يصدق أقوال

(١) ضوى: آوى ولجأ.

الرسولين قبل أن يسمع كلام المسلمين، وهذا ما كرهه عمرو وصاحبه وحاول البطارقة المتآمرون إقناع النجاشي دون جدوى، وقال لهم بغضب: «لا ها الله[1]، إذاً لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم. فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني».

وأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم أجمعوا على أن يقولوا ما علمهم إياه الإسلام، متوكلين على الله، راضين بكل ما يصيبهم في سبيل الله، واختاروا جعفر بن أبي طالب ليكون المتكلم فيهم، ثم جرت المحاورة التالية بينه وبين النجاشي:

النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

جعفر: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه،

---

(١) لاها الله: لا والله.

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحدة لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - وعدَّد أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟.

جعفر: نعم: «بسم الله الرحمن الرحيم، كهيعص. ذكرُ رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفياً، قال: ربِ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك ربي شقياً. .» وقرأ آيات أخر من سورة مريم. فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

ولكن رسولي قريش فكرا في أمرهما ملياً، ولم ييأسا من الظفر، فعادا إلى النجاشي وقالا له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم وسألهم عن ذلك، فقال له جعفر:

«نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ، هو عبدالله، ورسوله، وروحه، وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فضرب النجاشي بيده على الأرض، فأخذ منها عوداً، وقال: «والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود[1]، اذهبوا فأنتم شيوم[2] بأرضي، من سبكم غَرِم[3]، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْراً[4] من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم».

وهكذا يمر مصعب وصحبه ـ رضوان الله عليهم ـ في الحبشة بمحنة جديدة، حيث يطاردهم المشركون إلى هناك،

(١) أي ما جاوز هذا العود أي قدر هذا العود.
(٢) شيوم: آمنون.
(٣) غرم: عوقب.
(٤) الدبر: الجبل.

ولكن صدق إيمانهم، ووضوح العقيدة في أذهانهم ونفوسهم وأقوالهم، وسمو أخلاقهم، جعلهم ينجون ـ بفضل الله وعونه ـ من هذه المحنة الجديدة.

لقد صدقوا في قولهم؛ لأن ثقتهم بالله أقوى من أية مصيبة، ولأن عقيدتهم هي الحق والخير والصدق. فإذا نجوا فتلك نعمة من الله، وإن نزلت بهم المصائب، فليس ذلك بِدْعاً من الدعوة، بل هو طريق الإيمان.. طريق المحن.

هذا وإن في اتفاق المسلمين على تقديم جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ليتكلم باسمهم، يعطينا صورة واضحة عن هذا المجتمع الصغير المنظم، ويعطينا صورة عن هذا التجمع المطارد والممتحن الذي يتحرك ـ معاً ـ لمواجهة الجاهلية بخطى ثابتة موحدة، وبثقة وطمأنينة وصبر وقوة، فلم يتنازعوا الأمر، ولم يتسابقوا للكلام، ولم يختلفوا في الرأي؛ لأن الحق رائدهم، وهو واحد لا يتعدد، ولذلك فلا مجال للخلاف والفرقة بين الدعاة الحقيقيين الصادقين، لأن الدعوة نظام وتضحية، لا غنيمة ومطمع وجاه.

وإننا لنأخذ من إجابتهم عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام الجواب الصحيح الذي جاء به القرآن الكريم درساً عميقاً جديراً بأن يتبع، فلقد قالوا الحق الذي جاء به الإسلام واضحاً، دون ممالأة أو خوف، أو تعثر أو تحريف أو تحوير، ولم يجتهدوا لإيجاد التبريرات والصور المنحرفة، كما يحدث

عند كثير من المهزومين. ولم يتنازلوا عن شيء ـ مهما صغر ـ من عقيدتهم، رغم إدراكهم لخطر الخطب الذي قد ينزل بهم إن لم يعجب النجاشي جوابهم. وكم في هذا الدرس البليغ من عظة وتنبيه وتحذير لأولئك الذين يحترفون صفة التدين، فيتاجرون، ويمالئون، ويحرِّفون، ويخدعون، ويبررون، ويشوهون، ويدوسون كرامة الإسلام والمسلمين، ويريقون تعاليم القرآن الكريم، حين يقفون مُسْتَجْدين متخاذلين على أعتاب السلاطين، أو يبتغون رضاهم، أو يتظاهرون بموافقة أحكامهم وأعمالهم.

إن الإسلام عقيدة واضحة، تلائم الفطرة، فهي كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وهي قوية، قوية بذاتها، بأصولها، بمصدرها، بواقعيتها. ولكنها تحتاج إلى النفوس الحية القوية، إلى الرجال الصادقين في إيمانهم، الذين يحوِّلون نصوصها إلى واقع وحركة، إلى دعوة وتجمع، إلى مجتمع ودولة، إلى أمل ومستقبل. وحينها يتصاغر أمام ثباتهم الجبارون الطغاة، ويطأطيء المتكابرون رؤوسهم لتعاليمها الرائعة النيرة، ويسير الناس نحو عالمها الفريد أفواجاً. ولقد أعطى الإسلام ثماراً ما زالت شهية في فم الزمان، وما زال في مقدوره أن يعطي أفضل وأحسن إذا حمله الصادقون المؤمنون العاملون.

الهجرة محنة في طريق الدعوة، هجرة في سبيل الله، لا

من أجل المال والدنيا والكسب والقصور، لا من أجل السلطة والمنصب والجاه، لا فراراً من جو المعركة الملتهبة والدعوة الممتحنة. وإنما هجرة لتثبيت دعائم المجتمع الجديد، والإنطلاق نحو معاقل الجاهلية، في مكة وفي مواطنها الأخرى على مدى العصور.

كان مصعب واحداً، من هؤلاء، كان من أكثرهم إيماناً، وأثبتهم على الحق، وأحسنهم خلقاً ،معاشرة، لم يخف من كيد المشركين، ولم يرهبه بُعد السفر، ولم تقتله المسافات النائية التي قطعها عبر الأمواج المزبدة. إنه ما زال قوياً ينتظر أن يعود ليشارك في الجهاد ضد الجاهلية وطغيانها، إن في قلبه ثورة ملتهبة تنتظر أن يؤذن لها ليحقق لعقيدته انتصارات وانتصارات. إنه يتمنى أن يعود ليقارع عقائد المشركين بالحجة والسيف؛ لينال ثواب الداعين المجاهدين.

فإذا كانت الهجرة إلى الحبشة، قد خففت عن مصعب وإخوانه شيئاً من المحنة والتعذيب والتسفيه، فإنها محنة بحد ذاتها ـ أيضاً ـ لأن البعد نيران تشتعل في قلب الغريب البعيد عن أهله ووطنه وإخوانه، ومواطن ذكرياته، ومدارج طفوله، ومحافل صباه وشبابه.

وإن الغربة قاسية، وخاصة حين يضطر الغريب إلى قطع الصحراء الممتدة القاسية على الأقدام في الحر والبرد وفي الليل والنهار، ومن ثَمَّ تتقاذفه الأمواج، لتلقي به على

شواطىء البلاد البعيدة في الحبشة، فيجد نفسه غريب الوطن، غريب اللسان، غريب القلب، غريب العقيدة، في مجاهل لا يعرف عنها شيئاً، ولا يتبين فيها طريقاً، تحيط به المخاوف والأخطار من كل جانب.

ولكن كل هذه المحن والصعوبات تغدو هينة وسهلة ولذيذة. نعم إنها تتحول إلى ثمرات طيبة، وشراب عذب عند المؤمن الذي بايع الله عزّ وجلّ على الدعوة والجهاد، لينال رضاه ويظفر بجنته.

وأي قيمة لأطايب الدنيا وزينتها في نظر المؤمن؟ وأي خوف من عذابها وصعابها؟.. إن يوماً عند ربك كألف سنة من سنوات دنيانا!! إنها تافهة وصغيرة، وباطلة. وإنه ضلال أن نغرق فيها.

وهنالك آخرة أرحب وأجمل وأحلى، هناك نعمة الرضوان أعظم من كل نعمة. وهناك أطايب لا تطولها أطايب، فما دام المؤمن يوقن بأن رضوان الله أنعم وأطيب وأشهى، فلن يخاف من الدنيا.

لذلك تحولت صعاب البعد والفراق والغربة، وعناء الطريق، ومكائد المشركين، تحول كل ذلك إلى ثمرات يجنيها مصعب وصحبه، ويكتنزونها ليومهم الموعود عند الله.

وكان كل شيء من هذه الشدائد عذباً في مقاييس

المهاجرين، لأنه الطريق الوحيد إلى الدعوة، في دنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

ولهذا فقد كان مصعب في الهجرتين إلى الحبشة، وظفر بفضلهما وثوابهما عند الله[١].

* * *

(١) انظر حياة الصحابة (١ ـ ٥٢٨) وما بعدها.

مُصْعَبُ الدّاعِيَة

١ ـ اشتداد المحن:

لا نعلم بالضبط كم أمضى مصعب في الحبشة بعد هجرته إليها، لكننا نعلم أنه كان في مكة قبل بيعة العقبة الأولى. وإذا كانت فترة الدعوة في مكة ثلاث عشرة سنة[1]. وأن مصعب بن عمير كان في مكة قبل بيعة العقبة الأولى، فمعنى ذلك أنه جاء في الحادية عشرة من البعثة على أكثر حدٍّ، بينما بقي كثير من المسلمين في الحبشة حتى فتح خيبر.

وخلال هذه السنوات التي مرت على المهاجرين الأوائل في الحبشة، كان رسول الله ﷺ وبقية المسلمين يخوضون معركة العقيدة مع المشركين، ويتحملون أنواعاً من الأذى والعذاب والبلاء.

وخلال هذه المـرحلة توفيت زوجـة رسول الله ﷺ أم

---

(١) هناك روايات مختلفة حول المدة التي مكثها رسول الله ﷺ بمكة. ولكن أوفق هذه الروايات التي ذكرت أن فترة الدعوة بمكة ثلاث عشرة سنة.

المؤمنين خديجة رضي الله عنها، التي واسته وشدت من أزره، وكانت له نعم المؤنس والمعين المؤازر، تتحمل معه المشقات، وتشاركه مغارم الجهاد المر، وتمده بالمال والتشجيع عند كل مصيبة. فهي نسمة سلام وبر، رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحي، وبقيت ربع قرن معه، تحترم قبل رسالته تأمله وشمائله. وتتحمل معه بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة[1]، فكانت نموذجاً حياً كاملاً للزوجة المؤمنة، التي تقف مع زوجها في سبيل الدعوة، وهي حَرِيّة بأن تُحتذى من كل مسلمة وداعية.

وكان قد توفي أبو طالب عم رسول الله ﷺ في العام الذي توفيت فيه خديجة فزاد البلاء عليه، وازدادت قريش في إيذائها لرسول الله، حتى سمي ذلك العام بعام الحزن.

ولكن رسول الله ﷺ ظل على ثباته، رغم اشتداد المحن، ليضع معالم الطريق لأبناء الدعوة وحملة العقيدة، آنئذ وفي كل حين.

وكان المشركون قد تجرأوا عليه، فاعترضه أحد السفهاء ونثر على رأسه التراب، ودخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فبكت إحدى بناته وهي تغسل رأسه لتزيل عنه التراب، فقال لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك». ثم

---

(١) انظر كتاب فقه السيرة للغزالي ص ١٢٨.

قال: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»(١). واستمر الإيذاء بالاشتداد والعنف حتى استحال عليه البقاء في مكة، وراح النبي عليه الصلاة والسلام يبحث عن قاعدة جديدة في بلد آخر، يأوي إليه وينشر دعوته فيه.

وقبل ذلك خاض المسلمون غمار تجربة فريدة، حيث تعاهد المشركون مع غيرهم من القبائل على مقاطعة المسلمين وبني هاشم ـ الذين يحمون رسول الله ـ وكتبوا بذلك عهداً وصحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة، واضطر الرسول والمسلمون أن يعيشوا في شِعْب بني هاشم ـ ومعهم بنو المطلب كافرهم ومؤمنهم ـ ما عدا أبا لهب ـ حتى انتهت المقاطعة.

وفي أثناء المقاطعة ضاق الأمر بالمسلمين، حيث قاطعهم الناس، لا يبيعونهم ولا يشترون منهم، حتى تضوروا جوعاً، وبلغ منهم الجهد أقصاه، وكاد أطفالهم يموتون جوعاً، ونحلت أجسادهم، ويبست مَعِدهم، ولكنهم ثبتوا وصمدوا وضربوا أروع الأمثلة بالثبات والصبر والإيمان.

قال السهيلي: كان الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام قوتاً لعياله، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد،

---

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام.

حتى لا يدركوا منكم شيئاً، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن لكم أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله ـ وهم يتضاغون من الجوع ـ وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جُهِد المسلمون ومن معهم جوعاً وعرياً(١).

ويروي لنا سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ صورة عن هذه الشدة أيضاً، فيقول: «كنا قوماً يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء، اعترفنا لذلك ومرَنّا عليه وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة، خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقعة شيء تحت بولي، فلمسته بيدي، فإذا بقطعة من جلد بعير، فأخذتها، فغسلتها، ثم أحرقتها، فوضعتها بين حجرين، ثم استفُّها، وشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثاً»(٢).

وكان مصعب بين المسلمين يعاني هذه المحنة الجديدة، حتى بلغ به وبالمسلمين الجهد والمشقة والجوع والضعف مبلغاً كبيراً: «حيث تغير لونه، وأصابه الجوع حتى لم يعد يقوى على هذا الجوع. وإن جلده ليتطاير عنه تطاير جلد

(١) عن الروض الأنف للسهيلي.
(٢) عن حياة الصحابة (١ ـ ٤٦٢ وما بعدها).

الحية، ووصل به التعب إلى حد أنه لم يعد يستطيع المسير من شدة البلاء والضعف، حتى عرض له المسلمون القسي وحملوه على عواتقهم»[1].

وهذا هو طريق الإيمان وطريق الدعوة: محنة وابتلاء، ومشقة وعذاب، وجوع وعطش، وتعذيب وغربة، وقهر ومطاردة، وتسفيه وسخرية وإيذاء.

والمؤمن الداعية، أهون عليه ألف مرة، أن تخلع أضلاعه ضلعاً ضلعاً، وأن يأكل تراب الأرض، من أن يتخلى عن دعوته وعقيدته، أو يتراجع عن قضية آمن بها، أو يقبل المساومة على فكرته التي بلغت عنده حدَّ اليقين. لأن في ذلك تنازلاً عن جوهر نفسه كإنسان، ولأن الفكرة التي تتملك بيقينها المؤمن تتحول عنده إلى قيمة الحياة ذاتها.

«ولقد أراد الله سبحانه وتعالى لهذا الدين أن يقوم أمر دعوته على أيدي البشر وبجهود الناس، حتى يبقى طريق هذا الدين واضحاً وممكناً في كل مكان وزمان، وليكون ذلك منهجاً يأخذ به المسلمون في كل وقت، ولأجل هذا لم يقم على المعجزات والخوارق دون مشقات ومحن، وحتى لا ينقضي أجل الدين بعد انتهاء عصر النبي ـ عصر المعجزات ـ بل كان الطريق هو طريق الجهد البشري، والدعوة الصابرة المستمرة، التي يبذل أصحابها في سبيلها المال والدموع

---

(١) عن سير أعلام النبلاء، الجزء الأول.

والدم والأرواح، ويقاسون أمرَّ العذاب. وعلى هذا أصبح طريق انتصار الدعوة وانتشارها وإحيائها - في أي مرة - يقوم على جهد أبنائها، ولا عذر للقاعدين المتواكلين، أو المنهزمين والمتخاذلين، أو المدَّعين والمنافقين، فكلما كان جهد وكان إخلاص وثبات وصبر، كلما كانت دعوة وانتصار وأمل»(١).

وهكذا فقد وصلت الدعوة في جهادها إلى ذروة الأزمة والمحنة، وكادت أن تتجمد نهائياً في مكة، واشتدت قريش بتعذيبها وطغيانها، لأنها كانت في يقين تام أن وجود هذه الفئة وبقاءها سيكون خطراً مميتاً لهم، لذلك راحوا يضربون حول رسول الله وصحبه الحصار، وينشرون الأكاذيب بين القبائل في مواسم الحج ويؤلبون عليه العرب، ويشهرون كل سلاح في وجه الدعوة.

٢ - البحث عن موطن جديد للدعوة:

وإزاء هذا كله، لم يبق لجنود الدعوة غير طريق واحد، وهو الخروج من هذا الحصار إلى موطن جديد، وعدم البقاء في أماكنهم راضخين لسياط الجلادين، وتعذيب الطغاة.

ولقد وجد المسلمون في أرض الحبشة أنها ليست هذا الموطن المهيأ لاحتضان الدعوة، وإن أعطاهم أماناً لفترة من

---

(١) انظر فصل: منهج للبشر في كتاب (هذا الدين) للشهيد سيد قطب رحمه الله.

الزمن. لذلك خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف في محاولة لفك الحصار عن الدعوة، علّه يجد في ثقيف رفداً جديداً للدعوة، وفي بلدهم مكاناً آمناً لاحتضان جماعتها الفتية، ولكن الطائف وقفت موقف مكة الجاهلية.

ووقف رسول الله يدعو بعد عودته منها بهذا الدعاء الذي ترتجف له الأوصال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلَحَ عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليَّ سخطك. لك العتبى[1] حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة ليجد إيذاء قريش أشد وأنكى، وليلقى من الاستهزاء والشماتة أضعاف ما كان يلقى، ولكنه لم يكلّ في البحث عن مخرج جديد.

ولم يكن في مكة معه غير المسلمين المستضعفين، وبدأ يعرض دعوته من جديد في المواسم على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن

(١) العتبى: الرضى.

يصدقوه ويمنعوه، حتى يبين عن الله ما بعثه به، ولكن المشركين كانوا يلاحقونه في كل موطن، يسفهون رأيه، ويحذرون القبائل منه ومن دعوته، وكان أشد هؤلاء عمه أبو لهب الذي كان يذهب إلى القبائل والعشائر التي يعلم أن رسول الله كلمها، فيضللهم، ويستثير عنادهم وعنجهيتهم وتعلقهم بأصنامهم.

وظل رسول الله يواصل الدعوة دون يأس أو ملل، ويقول للقبائل واحدة إثر واحدة: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله وحده، وأن لا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به».

هذا هو طريق المؤمن وديدنه في كل وقت، لا عذر له عند الله في القعود، ولا مبرر يعفيه من استمرار دعوته، فرداً كان أو مع جماعة، في عسر ويسر، في ما يكره وما يحب، والله سبحانه هو الكفيل بنصر دعوته، ولا يحاسب المؤمن على النتيجة، وإنما يسأل عن عمله وجهده ونيته.

ولذلك فإن الساقطين في هاوية الخذلان والانتكاس من دعوة الله، هم المهزومون، المتعذرون، ببعد النصر وصعوبة الطريق وقسوة المشاق والمحن.

٣ ـ بيعة العقبة الأولى:

قبل نفر من الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ الدخـول في الإسلام، بعد أن سمعوا ما تلاه عليهم رسول الله ﷺ من القرآن، وعلموا أنهم سيقفون في صف الدعوة ضد الجاهلية كلها، وأن العرب جميعاً سيقفون في وجههم، ومع ذلك رضوا بمبايعة رسول الله على نصوص واضحة. ولقد روى عبادة بن الصامت ـ أحد رجال البيعة ـ نصوص هذه البيعة، فقال: بايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب:

على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصية في معروف. وقال لهم رسول الله ﷺ: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء غفر وإن شاء عذب».

فكانت البيعة دخولاً في الإسلام بمعنى الخضوع والتسليم والعبادة لله، وعدم الشـرك ـ أي نوع من الشـرك ـ وهذا يجعلهم يتخلون عن جاهليتهم: (أوثانهم، وعصبيتهم، ومنازعاتهم وولائهم). وتشير نصوص البيعة إلى أنها منهج كامل للحياة: منهج عملي حركي واقعي، فقد كانت الفقرة الثانية تلزمهم بعدم السرقة: (كل أنواع السرقات التي تبيحها الجاهلية، كالإغارة، والسلب والنهب وتحليل كل ما يقع تحت يد المغير أو زعيم القبيلة من المسالب) لذلك كان من

نتيجة الإيمان بالله وعدم الشرك به تـرك منهج الجـاهلية وتقاليدها وقوانينها في الحياة، التي تمثِّـلُ نوعاً من الشرك بالله سبحانه وتعالى، وسلباً لحق الله عزّ وجلّ أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية.

وترك الزنى، وقتـل الأولاد، واقتراف البهتـان، أو أي معصية، وكل هذه الأمور تتعلق بالتطبيق العملي لهذه البيعة، وهي تخلٍّ كاملٌ عن الجاهلية، وإعطاء الإيمان معناه الواقعي في مجال الحياة والمجتمع والفرد. وإذا أعطى المؤمن كل ما يطلب منه في هذه البيعة فله رضوان الله وجنته.

وهنا يفترق خط الدعوة الإسلامية عن أية دعوة أخرى ـ وشتان بين الطريقين والهدفين ـ فرسول الله ﷺ لم يعدهم بالنصر والمناصب، ولم يعدهم بالدولة المنتصـرة أو بالمال أو السلطان، وإنما الغاية والهدف والجزاء هو رضوان الله، وكل ما عدا ذلك فهو صغير وباطل زائـل. وإن الإنسان الغارق في الدنيـا والمادة، والـذي تراكمت على فـطرته ضلالات الجاهلية وتصوراتها الباطلة، إن هذا الإنسان لا يدرك حقيقة الحياة، ولا يدرك قيمة هذه النعمة (الرضوان من الله والجنة). وحين يتصور الإنسان أنه سيقف في يوم مقداره خمسون ألف سنة أمام ربه يحتقر كل ما في الدنيـا من طيبات، وينزع عن كاهله عناءها الثقيل الزائف. أما المسلم المؤمن بربه حق الإيمان فإنه يدرك حقيقة الحياة وحقيقة الكينونة الإنسانية والحقيقة الإلّهية، ويستطيع أن يدرك الفرق

الشاسع بين الحقيقة الإلّهية الأزلية الأبدية، المطلقة القادرة المهيمنة، وبين الكينونة الإنسانية المحدودة بحدود الزمان والمكان والجهل والقصور، وحينها يقدر قيمة العمل الإنساني بقدره الصحيح، ويدرك نعمة الرضوان الإلّهي ونعمة الجنة بالنسبة لمقياس الحياة، فلا غرابة أن يرضى هؤلاء المؤمنون المصدقون برضوان الله وجنته، جزاء للبيعة، ونتيجة لكل الآلام التي سيمرون بها بعد هذه البيعة. إنها أكبر نعمة وأعظم منحة يطمح إليها المخلوق البشري في دنياه وآخرته.

٤ ـ مصعب داعية أهل المدينة:

لقد كان إيمان مصعب في المجال الحركي يظهر في صورة الصبر والثبات والصدق، وتحمل البلاء والأذى في سبيل الله في مرحلة الدعوة الأولى بمكة؛ ولكنه اليوم بدأ ينتظر المرحلة الجديدة التي يتاح له فيها أن يبدأ بالدعوة، ويساهم بدوره الحقيقي في تبليغها ونشرها والجهاد في سبيلها، وفي هذه البيعة حانت تلك اللحظات التي سينطلق مصعب فيها، ليقوم بدوره الجديد بعد أن خاض تجربة المحن والصعاب بنجاح فريد.

وكان يشهد هذه الأحداث التي تجري في الخفاء، فيستبشر بفضل الله الجديد على المسلمين، بعد أن فتح لهم باباً جديداً يأمنون في ولوجه، ويجدون فيه طريقاً لتثبيت عقيدتهم ونشرها بين الناس. أما مكة فما زالت في طغيانها

ترقب الأحداث، وتزيد من عنف الإيذاء والضرب، وتعمل سراً وجهراً وبكل وسيلة لكي تمنع كلمة الله من أن تنتشر، ولكن قريشاً ـ الجاهلية ـ نسيت أن مكرها ومكيدتها ضعيفة أمام قدر الله الذي تمثل في عمل الدعاة المسلمين وصدق إيمانهم.

وبعد البيعة بدأ الأنصار ـ الجدد ـ يتهيأون للعودة إلى بلدهم ـ يثرب ـ وكان لا بد من معلم داعية يرشدهم إلى أمور الإسلام، ويتدارس معهم القرآن، ويتعاون معهم في تطبيق المنهاج العملي للإيمان الذي نور قلوبهم؛ للمثابرة في الدعوة بين قومهم وأهل بلدهم.

لقد أدركوا ـ من اللحظة الأولى ـ مدى التغير الذي شمل حياتهم في هذه البيعة، ومدى التحول في آفاقهم البعيدة وعلى مستقبل بلدهم ومستقبلهم هم أيضاً، وشعروا بالمسؤولية الكبيرة التي ألقيت على عواتقهم إزاء هذه الدعوة.

إن إيمانهم لم يترسخ وكأنه شيء من الأشياء الأثرية التي تحفظ، ومن ثم يتجمد ويبقى ساكناً خامداً لا قيمة له ولا أثر في الحياة، بل تحرك على مستوى ذواتهم كلها، فعرفوا أن كل مظهر من مظاهرهم، وكل حركة من حركاتهم، وكل كلمة من أقوالهم، وكل أمل وغاية في مستقبلهم، لا بد وأن يكون موافقاً لبيعتهم ومتوافقاً مع إيمانهم. وإيمان المسلم لا يكون

صحيحاً وواقعياً وكاملاً، إلا إذا انسحب على حياة الإنسان وكينونته، فبدل من نفسه وخلقه وسلوكه وتصرفاته، فصاغه إنساناً آخراً، إنساناً مؤمناً واعياً، متحركاً، عملياً، متأملاً، واثقاً بالله، شجاعاً، صابراً، تقياً، متصفاً بأجمل الصفات الإنسانية. فللإيمان تبعاته ومسؤولياته، لأنه يتعلق بالخالق العظيم العليم، الخبير السميع البصير، الذي إليه نعود. ويتعلق بالحساب الذي لا يخطىء صغيرة ولا ينسى ذرة. وعلى هذا فقد كان من الطبيعي بعد البيعة أن يرسل النبي ﷺ مع الأنصار واحداً من صحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ليكون المعلم المرشد لهم الذي يعينهم على تقويم نفوسهم وتفهم الإسلام، والسير في طريق الدعوة الطويل، بين قومهم وفي بلدهم.

واختار رسول الله ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه ممثلاً له في المدينة، ومعلماً للأنصار، وداعية في البلد الإسلامي الأول.

وتختلف الروايات في كون مصعب قد ذهب مع الأنصار بعد البيعة أم أنه ذهب بعد ذلك، عندما طلب الأنصار هذا من رسول الله ﷺ بعد عودتهم للمدينة؟.

فابن هشام يقول: إن مصعباً ذهب معهم، وأمره رسول الله ﷺ أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

بينما نجد في حليـة الأولياء وغيـره من المصادر: أن الأنصار لما سمعوا من رسول الله ﷺ قوله: وأيقنوا واطمأنت نفوسهم إلى دعوته، فصدقوه وآمنوا به، وواعدوه في الموسم القابل؛ رجعوا إلى قومهم، ثم بعثوا للرسول: أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك، فيدعو الناس إلى كتاب الله؛ فإنه أدنى إلى أن يُتّبع، فبعث إليهم مصعب بن عمير، فنزل في بني غَنْم على أسعد بن زرارة، يحدثهم ويقص عليهم القرآن.

ويروي الدكتور حميد الله الحيدر أبادي نص الكتاب الذي أرسلته الأنصار لرسول الله ﷺ ليبعث لهم معلمـاً، وهو: «ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين، ويقرئنا القرآن»(١).

ويذكر أبو نعيم في الحليـــة أن الأنصار بعثوا إلى رسول الله معاذ بن عفراء، ورافع بن مالك: أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك، فليدع الناس بكِتاب الله، فإنه قمين ـ حقيق ـ أن يُتبع، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه(٢).

ومهما يكن، فإن اختيار رسول الله ﷺ قد وقع على مصعب بن عمير، ليكون ذلك المسلم الداعية، لكي يعلِّم المسلمين هناك القرآن، ويدعو الناس إلى الله.

ولا شك أن لهذا الاختيار دلالته، خاصة إذا تذكرنا تلك المحن الجسيمة التي نزلت بمصعب، وظل ثابتاً أقوى ما

---

(١) عن كتاب مجموعة الوثائق السياسية للعهـد النبوي ص ١٠.

(٢) نقلاً عن كتاب حياة الصحابة (١ ـ ١٦٩).

يكون الثبات، صابراً أوفى ما يعرف الصبر، ومؤمناً أعمق ما يكون الإيمان. وكان في حياته المطمئنة بالإيمان، وصبره في كل المحن، وتبدله من النعم إلى الابتلاء والثبات على ذلك، كان في هذا كله خير من يدعو في المدينة ليكون القدوة في تعليمه، قبل أن يكون المرشد في أحاديثه.

وغادر مصعب مكة مهاجراً ـ للمرة الثالثة ـ لكنه اليوم كان سعيداً واسع الأمل في هذه الهجرة، فهو يتطلع إلى الغد المشرق الذي يملأ الإسلام فيه قلوب أهل المدينة كلهم، فيعز الله بهم دينه، وينصر رسوله ويؤيد دعوته. فما هي هذه الهجرة، وأي مهمة تلك التي يسعى إليها؟.

إن المدينة كلها شرك وجاهلية، إنها يهود وقبائل متنافرة، ولا بد من الصعاب والعقبات، مهما توفرت أسباب النجاح ودواعي الأمل.

إن المجتمع الجديد في المدينة يبدأ من هذه المجموعة الصغيرة، وهؤلاء النفر القليل الذين آمنوا وبايعوا، وعلى مصعب أن يأخذ بيد هؤلاء لينشروا دعوة الله في كل بيت وليدخلوها إلى كل قلب.

ووصل المدينة ونزل في بيت الصحابي الجليل أسعد بن زرارة (أحد المبايعين في العقبة الأولى). وهناك بدأ عمله في الدعوة، وبهذا كان أول مهاجر إلى المدينة في سبيل الله، مبلغاً عن رسول الله ﷺ. وتبعه بعد ذلك عمرو بن أم مكتوم، ثم عمار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص، وابن

مسعود، ثم عمر بن الخطاب. وكان ذلك بعد إذن رسول الله بالهجرة (رضي الله عنهم) فكان لمصعب منزلة السبق في هذه الهجرة، وكان الداعية الأول في المدينة.

وبعد وصول مصعب إلى المدينة بدأت مرحلة جديدة، انتقل منها مصعب من دور الصبر والاحتمال والتعذيب والمجاهدة السلبية ضد شراسة الجاهلية، إلى دور المجاهدة الإيجابية في تبليغ الدعوة ونشرها وشرح معالم الدين الجديد، بالأسلوب السائغ والحجة البالغة، والخلق الرفيع، بعد أن تحرر من قيود الجاهلية، واطمأن ـ إلى حد ما ـ من أذى قريش والمشركين في المدينة.

ودوره الجديد ـ هنا ـ هو دور الداعية إلى الإسلام، بكل ما تحمل هذه الكلمة من مسؤوليات ضخمة، وبكل مالها من إشعاعات في نفس مصعب، ولا بد له أن يمثل شخصية الداعية المسلم، وتتمثل فيه الصفات المطلوبة، لكي يحقق المسؤولية الملقاة على عاتقه، ويقوم بالدور المنوط به.

ومكانته هنا أيضاً أنه سيمثل الرسول الجديد محمد ﷺ في الدعوة إلى شريعة السماء، وتوحيد الله، ونبذ الشرك، وإعلان دين الله للناس جميعاً، وإعطاء الصورة الحقيقية لهذا الدين لتنزيل ما علق في أذهان الناس من دعاوى زائفة عن الدين وعن الرسول مما أشاعته قريش وحلفاؤها من المشركين.

وصفات الداعية ليست بالصفات النظرية، أو الصفات العامة التي يشترك فيها كل الناس. بل إنها صفات المسلم

بمعناه الحركي، وهي لا تتوفر إلا في نوع من المسلمين، ممن أعدوا بالتدريب والمحن والمصابرة والجهد، حتى فازوا بهذه المنزلة الكريمة، لا سيما وأنه سيكون صورة عن المسلم ونموذجاً لأثر الإسلام في الرجال، وفي طريقة إعداد الدعاة، فما هو الدور الذي قام به مصعب في المدينة؟.

إن كل الروايات تشير إلى أن مصعباً أرسل إلى المدينة لكي يقوم بالأمور التالية:

١ ـ لكي يقرىء الأنصار القرآن ويفهمهم تعاليمه.
٢ ـ ولتعليمهم أمور دينهم.
٣ ـ وليصلي بهم.
٤ ـ وليدعو الناس إلى الدين الجديد.

وكأنما كانت مهمته كداعية تقوم على تحقيق هذه الأمور المهمة التي تساهم في بناء الفرد المسلم كلبنة أولى في المجتمع الإسلامي الجديد، وتساهم في بناء القاعدة الصلبة في المدينة التي ستكوِّن ـ هي والمهاجرون ـ فيما بعد المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

وعندما ننظر إلى هذه الأمور نجد أنها تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

١ ـ البناء الداخلي المتمثل في تعليم الأنصار القرآن، وتفقيههم أمور الإسلام، وإقامة شعائر الله سبحانه والصلاة بهم.

٢ ـ نشر الدعوة بين الآخرين، وتوسيع ساحة هذا المجتمع

الفتي، وضم الصالحين إلى القاعدة الصلبة.

أما الناحية الأولى فإنها تقوم على أمور عدة، وقد قام بها مصعب ـ فعلاً ـ في المدينة:

أ ـ فمن مهامه أن يقرىء القرآن للمسلمين في المدينة، ولا يعني هذا ـ بمفهوم مصعب أو الداعية المسلم ـ أن يقتصر على تلاوة القرآن بصوت رخيم ـ كما هو المعتاد اليوم ـ ولم يفهم مصعب من ذلك أن يجعل من القرآن الكريم نصوصاً يفتتح بها دروسه في المدينة!! لا. إن مصعباً تلقى دروس القرآن الكريم من معلمه الأول رسول الله ﷺ، وفهم عقيدته في الحياة ومنهج دينه الجديد من خلال فهمه للقرآن الكريم. وكانت دروسه أحداثاً وأعمالاً وصبراً ومحناً وتطبيقاً يومياً حياً، ولذا فلا بد له أن يجعل من القرآن الكريم مصدراً وحيداً وأساسياً لشرح الدين الإسلامي للأنصار، لأنه المصدر الوحيد، والنبع الفريد الذي استقى منه مصعب والمسلمون ـ حينذاك ـ مبادىء دينهم ومنهج حياتهم. ولم يحاول أحد منهم أن يستقي من مصدر آخر في أي أمر من أمور الحياة، رغم وجود الثقافات والمدنيات الكثيرة للشعوب المختلفة، وكان أمر الله ورسوله لهم أن يكون نبعهم الوحيد في تكوين العقيدة والتصور الصحيح في الحياة؛ ولهذا كانت أمور العقيدة واضحة لا تشوبها شائبة ولا يحرفها ـ في الأذهان والنفوس ـ فلسفات وأضاليل كما يحدث اليوم.

ولهذا كان مصعب يقرىء الأنصار القرآن على الطريقة التي تعلمها من رسول الله ﷺ، آيات آيات لا يكثر منها، ولا يستكثر في الجلسة الواحدة، لأنه يعلم أن على المسلم واجبات ستلقى عليه من كل آية، وتكاليف بعد كل جلسة وقراءة. لذلك فقد كان المسلم يكتفي بعشر آيات أو خمس أو ثلاث، حتى يحفظها ويعمل بها.

فكان مصعب يقرأ أمامهم القرآن، ويعلمهم قراءته، ويفهمهم معانيه ودلائله في الحياة، ومدلولاته الحركية والنفسية والاجتماعية، لكي يتحول إلى عمل وواقع ويغدو تكليفاً يومياً حركياً ينبغي تنفيذه والتكيف به، وتغيير حياتهم وأمورهم طبقاً لأوامره.

أما الأنصار فقد وجدوا في هذا متعة ولذة بالغتين، حيث اكتشفوا حياتهم من جديد، ورأوها تتبدل، ورأوا آفاقهم تتسع وأمورهم تستقيم، ونفوسهم تتغير، وأعمالهم تتحول إلى أعمال هادفة. وبصورة أخرى فقد غدا القرآن منهجاً كاملاً لحياتهم، ودستوراً واضحاً لسلوكهم، وطريقاً يصلهم بالملأ الأعلى، ويفتح عيونهم على وشائج متينة بينهم وبين الكون كله.

واقتضى ذلك منهم خلع كل جاهليتهم ونزعاتهم وتصوراتهم وتقاليدهم، لأنها لا تستقيم مع إيمانهم، فتبدل بذلك أمرهم، ووقف الخزرجي والأوسي جنباً إلى جنب في

البيعة ونصرة الدين وبناء المجتمع الجديد، وانتهت قصة الدماء والثارات، والحروب والغزوات، وأضحت بينهم وبين هذه الجاهلية هوة سحيقة ونيران يتردى فيها المنافقون والمشركون، وقامت في أنفسهم عزلة شعورية بين عقيدتهم وإيمانهم وبين ماضيهم الجاهلي المندثر، وكان كل ذلك أثراً من آثار الدروس القرآنية التي علمهم إياها مصعب، كي تكون بيعتهم لله ولرسوله صادقة، وإيمانهم بالله إيماناً صادقاً.

ولا ننسى أن القرآن الذي كان قد أنزل إلى ذلك اليوم هو القرآن المكي، الذي اهتم أكثر ما اهتم بتوضيح أصول العقيدة وأمورها وما ينشأ عنها، واهتم في بيان أنواع الضلالات والشرك وزيف معتقدات الجاهلية السخيفة، وفتح آفاقاً جديدة أمام الإنسان، ليبصر أثر قدرة الخالق الذي منحه النعم والحياة، وأعطاه الهدى ورسم له منهج الطريق.

فكان الأنصار يسمعون من معلمهم مصعب هذه الآيات، ويتلقونها بقلوب واعية، وبصائر مفتوحة، وفطر صادقة، وأذهان مشرقة، ثم يفهمون كل إشارة فيها الفهم الصحيح، ويرون في واقعهم صورة عن كل الذي يسمعون، لأن نزول القرآن واكب أحداث الدعوة، فكان أكثر أثراً وواقعية، ولهذا فقد كان فهمهم للقرآن مطابقاً لهذا الواقع العملي، ومن ثم تكيفوا مع صورة القرآن، وترجموا فهمهم له واقعاً في أشخاصهم وتصوراتهم وفي أسرهم ومجتمعهم كله.

وتمت هذه المهمة على أكمل وجه، وأدى مصعب ما عليه من واجب تجاه دعوته، ونفذ هذه المهمة الموكلة له من رسول لله، وكان في ذلك خير مؤدب وخير مرب وداعية، أعطى من نفسه القدوة لفهم القرآن وتطبيقه، وبلغ بالمؤمنين من الأنصار درجة من السمو والصدق ما جعلهم يكوّنون القسم الآخر من القاعدة الصلبة في المدينة.

ب ـ أما الشيء الثاني الذي أرسل من أجله مصعب إلى المدينة، فهو تفهيم أمور الإسلام للأنصار، وتفقيههم في الدين، خاصة وأن الفترة المكية كانت غنية بالتجربة الواقعية للحركة الإسلامية في عهدها الأول، وتربى أفراد الدعوة على أمور الإسلام كما كانت تواجهها الدعوة في كل يوم، ولهذا كانت لقاءات المسلمين الأوائل برسول الله ﷺ مليئة بالشروح والأحاديث التي تغني فهمهم للقرآن الكريم، وتعطيهم بعداً أكبر في فهم الحركة الإسلامية في تلك المرحلة.

وكان مصعب واحداً من الذين مارسوا هذه التجربة، وتربى في هذه المدرسة على يد رسول الله ﷺ في دار الأرقم في مكة، وقد عانى من الأمور الشاقة ولقي من التجربة العملية ما أكسبه وعياً كاملاً للإسلام، وعندما ذهب إلى المدينة بدأ يلقن المسلمين هناك دروس الإسلام بواقعيتها وحركتها وحيويتها، التي ما زال يشعر بضرباتها الساخنة، لكي يعرفوا أبعاد إسلامهم في الحياة، والواجب الذي يقع

على عاتقهم بعد بيعتهم لرسول الله في العقبة. ولا شك أن أمور العبادة والأخلاق والمعاملة وأمور العقيدة، كانت موضوعات لدروسه التي يوضحها للمسلمين، على ضوء ما تعلم من القرآن وحديث رسول الله ﷺ ووقائع التجربة التي عاشها في مكة.

ج ـ وكان مصعب يصلي بهم في المدينة ولا ننسى أن الأوس والخزرج كانا متنازعين متحاربين قبل الإسلام. وكرهوا أن يؤم بعضهم بعضاً في بدء الإسلام، ولهذا كان مصعب يؤمهم في عباداتهم، ويدل ذلك أيضاً أن الإسلام في عباداته وجميع شعائره يهدف إلى تنقية المجتمع من شرور الجاهلية، ويعمل على إقامة المجتمع المتكامل القوي الذي يشفى من العصبية والفرقة. والصلاة عبادة تساهم في تربية المسلمين حتى يكون لهم هدف واحد وغاية واحدة ووجهة واحدة، وإمامة مصعب للأنصار جعلتهم يتوحدون في صف واحد، وتلتقي قلوبهم على حمد الله وشكره، وطلب عفوه ورحمته وهداه، ويتوجهون إليه سبحانه وتعالى متنازلين عن عصبياتهم الجاهلية، ويقفون صفاً واحداً متراصاً بانسجام ونظام تامين. وكان مصعب في صلاته يبتغي تكوين هذه النواة الصلبة الموحدة، فهي المجموعة الإسلامية الأولى التي توحدت وتعاهدت على نصرة الحق، ونزعت كل شيء غير الإسلام، وظل يؤمهم حتى هاجر عبدالله بن أم مكتوم إلى المدينة فأصبح إماماً لهم لكثرة حفظه للقرآن الكريم.

د ـ وأما دور مصعب كداعية، فهو دور ضخم بالنظر إلى الظروف التي كانت تمر بها الدعوة الإسلامية، ولا ننسى المحنة التي كان يمر بها المسلمون ـ آنذاك ـ في مكة، وخاصة بعد موت أبي طالب والسيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكان على مصعب بالإضافة إلى ما سبق أن يدعو أهل المدينة كلهم إلى هذا الدين، ويبلغهم دعوة الله لكي يتكاثر المؤمنون، وتصبح للإسلام قوة تحميه ووطن يأوي إليه، وقاعدة يعتمد عليها. وبالقدر الذي ينتج فيه بدعوته ويكسب لها الأنصار؛ يكتب للإسلام من النجاح في المستقبل.

ولقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ ينتظر في مكة نتيجة عمل مصعب مع أهل المدينة، ويرنو إلى بعيد بأمل وهو يتطلع إلى ذلك اليوم الذي يرى فيه المؤمنون نصر الله قد تحقق، ودولة الإسلام قد قامت في الأرض، ودين الله يدخل فيه الناس أفواجاً.

وأدرك مصعب مهمته هذه، وأدرك أن اختيار الرسول ﷺ له كان عن قصد وخبرة وثقة. ولهذا كان عليه أن يهتم بأمر الدعوة في المدينة، وينوب فيها عن رسول الله في درب الإسلام الشاق.

إنه كان يعرف كيف أن «خُلُقه القرآن» وكيف رفض أن يُطْبِقَ الله سبحانه وتعالى الأخشبين على أهل الطائف، بعد أن آذوه وطردوه وسخروا منه وأدموا قدميه. وقد سمع من

رسول الله أيضاً أن اهتداء رجل على يدي المسلم أفضل له عند الله من الدنيا وما فيها، وكان يعلم أن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بالدعوة والجهاد كي يحظى المسلم برضوانه سبحانه وتعالى، ولا عذر لقاعد هنا في هذه المرحلة أو متقاعس أو منهزم ومتخاذل، وكان مصعب أهلاً لثقة رسول الله وكفيلاً بتحقيق كل هذه المهام وحمل عبء الدعوة في المدينة.

ولا بد للداعية الذي سيجابه الناس بعقيدة جديدة، ويدعوهم للإيمان بمبادىء وأهداف لم يسمعوا بها من قبل، من خلع كل عزيز على نفوسهم لشد ما ألفوه، إن الداعية يحتاج إلى صفات تجعله قادراً على تأدية ذلك وتمثيل دعوته تمثيلاً صحيحاً.

ومصعب كان نموذجاً حياً للداعية المسلم الذي يقوم بأمر دعوته على أكمل وجه، ويمثلها بأجلى معانيها وأدق خصائصها؛ ولهذا كان يتمتع بالصفات التي تؤهله لهذا الدور العظيم، فلقد آمن بالله سبحانه وتعالى إيماناً واعياً عميقاً، وفهم أن إيمانه هو بيعة لله سبحانه وتعالى، ونزع لكل عبودية لغير الله سبحانه وتعالى، وطاعة لله بكل أمر في حياته، ونزع لكل معاني الألوهية عن كل مخلوق أو بيئة أو مجتمع. وجاهد مصعب على ذلك نفسه؛ حتى غيرها من نعيمها وسعادتها وعنادها إلى الخشونة والتقشف والفقر والغربة

والجوع والعذاب، وكان في ذلك محققاً لحديث رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله» ثم ارتفع بإيمانه ليهجر كل شيء في سبيل مرضاة الله عزّ وجلّ: هجرة المعاصي إلى الطاعات، وأفضل الهجرة «أن تهجر ما كره ربك» وهجرته من وطنه ليبحث عن موطن يأمن فيه على عقيدته، ويجد مناخاً صالحاً لنشر دعوة الله. وكان في كل ذلك نموذجاً حياً للدعوة ومظهراً مجسداً لهذه المبادىء التي حملها، فلقد كان في سيرته وخلقه وشدة إيمانه ووعيه وسلوكه مثالاً للداعية الصادق. عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: «كان مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ لي خدناً وصاحباً منذ يوم أسلم إلى أن قتل ـ رحمه الله ـ بأُحُد، خرج معنا إلى الهجرتين جميعاً بأرض الحبشة، وكان رفيقي من بين القوم، فلم أر رجلاً قط أحسن خلقاً ولا أقل خلافاً منه»(١). وجاء في أسد الغابة عن مصعب: أنه كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومن السابقين إلى الإسلام.

والداعية المسلم حين يتصدى ليكون رسول عقيدته في المجتمع لا بد له أن يتحلى بمثل هذه الصفات التي تجعله ممثلاً حقيقياً لها؛ وإلا كان صورة منفِّرة منها، وليس أخطر على الدعوة من أبنائها المدَّعين والمنافقين والمتخاذلين، الذين يسلمون بالفكر ويكفرون بالسلوك والعمل، فيعطون

---

(١) عن الطبقات لابن سعد.

نموذجاً قبيحاً يحسبه الناس ـ خطأ ـ أنه الإسلام، ويستغله الحاقدون في دعاياتهم وطعنهم على الإسلام وتنفيرهم منه. ولذلك قال رسول الله ﷺ عن المؤمنين: «إذا رؤوا ذكر الله» لأن المؤمن الحقيقي هو الذي يجعل الناس ينظرون إلى الإسلام في واقعه الحي المتمثل بالرجال، الإسلام الواقعي في هذا النموذج. وحين وقع الفصام المشؤوم بين سلوك المسلم وفكره بدأ الإسلام بالانحسار، وخسارة ذلك التأثير في الآخرين. وفي اليوم الذي بدأ المسلم ينظر فيه إلى نفسه بأنه كامل لأنه مسلم، معتمداً على المقدمات البديهية بأن الإسلام كامل؛ حينذاك بدأ ينسى أن إسلامه هذا ـ الإسلام البارد الميت ـ لا قيمة له في المجتمع والحياة.

إن الإسلام حركة وعمل ودعوة وجهاد، والإسلام يتمثّل في رجاله الذين يتحولون إلى قرآن يسير على الأرض، ويتمثل صوراً متحركة في المجتمع، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم وهكذا كان مصعب بن عمير.

ثم إنه ـ كما رأينا ـ كان يتصف بكل الصفات الفردية الضرورية للداعية المسلم، الذي يتعامل مع المجتمع ويخالطه ويلقى منه الصدود والأذى والصعاب، فكان كما أوصاه معلمه الأول رسول الله ﷺ: «أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وأن أَصِلَ من قطعني، وأعطي من

حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة، وأن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

وكان يتصف بالصبر الذي هو من لوازم الدعاة، متأسياً في ذلك برسول الله، الذي كان قدوة الدعاة جميعاً في صبره على أنواع الأذى والمحن والشدائد.

واتصف بالإيثار والتضحية، إيثار الحق والعقيدة على ما في هذه الدنيا وطيباتها، والتضحية بالمال والجاه والراحة والمستقبل والروح من أجل الحق الذي يؤمن به، ورأينا صورة ذلك في محنه الكثيرة.

واتصف أيضاً بالحماسة القلبية والتعلق بغايته في سبيل الحق إلى حد كبير، جعله لا يأسف على شيء من الدنيا قد فقده، ولا يطمع في شيء من الدنيا سيفوته. بل كانت غايته غاية واحدة عاهد الله عليها من أول يوم من إسلامه، وكانت هذه الغاية تملأ قلبه وضميره ووجدانه وتشغل كل وقته وحياته.

وكان قلبه متصلاً بالله سبحانه وتعالى، لا يبتغي غير مرضاته ولا ينسى لحظة أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه على عمله، وأن ثوابه هو الباقي، وأن كل شيء سواه زائل وباطل. وهو في كل عمله ودعوته رمز الجندي المطيع لقائده المستقيم في دعوته، الملتزم بعقيدته وجماعته. وكان

منسجماً في عمله كل الانسجام مع الدعوة الإسلامية، وخطواته كلها في سبيل هذه الدعوة.

هذه الصفات التي اتّصف بها مصعب بن عمير رضي الله عنه جعلته أهلاً لأن يكون رسولاً من النبي ﷺ إلى المدينة، ليكون هناك المعلم المقرىء، ويلقن مسلمي المدينة دروس الإيمان كما تلقاه من معلمه رسول الله ﷺ، وليعيش معهم في ظلال القرآن ـ حياة واقعية ـ وهو ينقلهم إلى عوالم الأرض والسماء، ويرفعهم إلى علٍ ليردوا البشرية الضالة الهائمة، وليعرفوا سفاهة المعتقدات السائدة، والمستوى الهابط الذي كانت الجاهلية فيه، وحينها يدركون مدى النقلة التي نقلهم إياها الإسلام، والخطوة الكبيرة التي خطوها ببيعتهم لرسول الله. إنها خطوة نحو الحياة بعد العدم، والخلود بعد الموت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[1].

«لأن الإسلام منهج حياة كاملة، لا مجرد عقيدة مستسرة، منهج واقعي تنمو الحياة في ظله، وتترقى، ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها، وفي كل مجالاتها ومدلولاتها.

وفي دخول المسلم في الإسلام يكون قد دخل إلى حظيرة

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الأنفال.

الحياة، وإلى دار القوة والعزة والاستعلاء، بالعقيدة والمنهج والثقة بربه ودينه، والانطلاق في الأرض كلها لتحرير الإنسان بجملته، وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده، وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله فاستلبها منه الطغاة»[1].

ومن أجل هذا فإن الداعية إلى الله لا يخشى أحداً، لأنه قوي عزيز، ولأنه تخلص من عالم الموت والضلال، بل يظل قوياً ثابتاً يصرخ بالمشركين: ﴿قل: ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنْظِرون. إن وليِّيَ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾[2] فالداعية يتجرد من إسناد الأرض ويستهين بها، لأنه لا يرتكن لغير الله ولأن أي سند غير الله لا يساوي شيئاً.

ولقد رأينا كيف كان رسول الله ﷺ لا يعتمد إلا على الله ولا يلتجىء لغيره في كل ظروفه، وكذلك فعل أبو بكر وابن مسعود وعبدالله بن مظعون، عندما عذبوا وضربوا ورفضوا جوار أحد غير جوار الله. فعبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول وقد تناوله المشركون بالأذى الشديد ـ لأنه أسمعهم القرآن في ناديهم ـ في جوار الكعبة: «والله ما كانوا أهون عليّ منهم حينذاك» لأنه كان يعرف أنهم يحادُّون الله سبحانه

(١) انظر ظلال القرآن تفسير الآية السابقة.

(٢) الآيتان ١٩٥ ـ ١٩٦ من سورة الأعراف.

وتعالى، وكان يستيقن أن الذي يحادّ الله مغلوب هيِّن على الله، فينبغي أن يكون مهيناً عند أولياء الله.

وكان مصعب في ثقته بالله حين هاجر وحين بدأ يدعو إلى الله رمز المؤمن الداعية.

منهج دعوته في المدينة:

وصل مصعب إلى المدينة وهو يحمل مسؤولية ضخمة، ويتطلع إلى مستقبلٍ قريب يرى فيه الإسلام وقد انتصر، والمسلمين وقد أقاموا دولتهم على أساس العقيدة الإلٓهية. وكان يعلم أن هذه المدينة الجديدة تحتاج إلى دعوة جادة مخلصة، وأسلوب حسن، وإيمان وصبر؛ لكي تصبح داراً للإسلام، وعليه أن يبلِّغ الدعوة ويقوم بهذه المسؤولية بصبر وثبات ومصابرة.

روى ابن سعد في طبقاته أن مصعب بن عمير قدم المدينة، فنزل على أسعد بن زرارة، وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فيسلم الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام، وفشا في دور الأنصار كلها والعوالي إلا دوراً من أوس الله وهي خَطْمة ووائلٌ وواقفٌ، وكان مصعب يقرئهم القرآن ويعلمهم.

ونرى من هذا أن مصعب بن عمير بدأ في الدعوة حالما وصل إلى المدينة، حيث كان يسعى إلى الناس، لأنه يحس

بمسؤوليته كمسلم أمين على دعوته أمام الله عزّ وجلّ في تبليغ الدعوة لكل الناس، ولا يمكن للمسلم أن يؤدي هذا الواجب إلا حين يسعى إلى الناس، ليزيل عن فطرهم ما تراكم عليها من ركام الجاهلية وضلالاتها، ويبيّن لهم عقيدة التوحيد وشريعة الله بوضوح وبساطة وإخلاص ويصبر على أذاهم: من استهزاء وسخرية، وتسفيه وعناد وصدود. كل ذلك من أجل الدعوة.

وكان مصعب متمرساً في الصبر على المشاق والمحن، ومهيأً لهذه الدعوة مهما كانت مشاقها، لهذا بدأ يأتي دور الأنصار وقبائلهم، فيدعوهم إلى الإسلام، فهو يطوف من بيت إلى بيت، ويستغل كل لحظة أو مناسبة لتبليغ دعوة الله لكل رجل ولكل قلب، ويشرح منهج الله لكل عشيرة وقبيلة بالحكمة والموعظة الحسنة، لا يخشى الأذى ولا يخاف الصدود، ولا يأبه بالسخرية، ولا يطمع بغير ذلك الجزاء الذي يناله الدعاة. ذلك الجزاء الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت».

ونلحظ أيضاً أنه لم يكن يعتمد في توضيح العقيدة الإسلامية إلا على القرآن الكريم، فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فيسلم الرجل والرجلان، حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها «وكان مصعب يقرئهم القرآن ويعلمهم». إذن كان يقرأ عليهم القرآن ويقرئهم إياه،

ويعلمهم ما في القرآن من معالم الطريق ومناحي العقيدة. وهذه هي عقيدة الإسلام، فهي ليست فلسفة تتأولها العقول، ولا نظريات تبتدعها الأفهام وليست خيالات وأحلاماً تطير بها الأذهان والتخيلات، بل هي عقيدة واضحة لها منبع واحد هو القرآن الكريم.

وليس حديث رسول الله ﷺ غير شرح وتفصيل لما في القرآن الكريم، ولهذا كان المسلم يشعر بالوضوح التام، وتتفتح نوافذ كينونته وفطرته للقرآن الكريم، ويجد فيه كل ما يطمئن هذه الفطرة والكينونة والآمال والمشاعر.

وفي وحدة المنبع لفهم العقيدة صفاء ووضوح وطمأنينة، تجعل المسلم أكثر يقيناً وأكثر معرفة بحدود عقيدته، وحين يؤمن بهذه العقيدة يعلم تماماً ما تتطلبه منه، فلا تلتبس عليه الأمور كما تلتبس على مسلم اليوم، الذي يحاول فهم إسلامه ممزوجاً بمفاهيم العصر وفلسفاته، بين ركام الثقافات والآراء والأضاليل والتفسيرات، ويعتمد على عقله فقط ليفسر كل ما يراه، دون أن يترك لفطرته ومشاعره وكينونته كلها أن تتفتح لفهم هذه العقيدة الجديدة.

وحين يبلغ فهم المسلم لدينه هذا الفهم الواضح يدرك خطورة المحاولات التي يحرص عليها أناس، فيخلطون بين منهج الإسلام وبين مصطلحات العصر ومفاهيمه ومناهجه، محاولين بذلك التوفيق بين الإسلام ومناهج العصر. وكأن أمر

العقيدة في يد البشر، متناسين أهمَّ خصائصها (الربانية)، وبذلك يقضون على تميُّز الإسلام وتفرده. وليست إدعاءات العصرية، وغيرها إلا من هذه المحاولات. إن المسلم الذي يؤمن بالله الواحد العليم البصير، لا ينطلق في فهم إسلامه من نقطة الشعور بالهزيمة والنقص، بل يعلم ويؤمن بأنه صاحب الحق، لأنه يحمل رسالة الله، وهو القـوي وهو العزيز.

ولا يمكن للمسلم أن يفهم عقيدته بشكلهـا الواضـح الصافي؛ إلا حين يفتح قلبه وفكره ومشاعره كلها للقرآن الكريم، ويكنس كل ما في ذهنه من مفاهيم وأفكار وفلسفات وتفاهات مسبقة عن الإسلام والعقيدة.

والشيء الثالث الذي نلحـظه مما سبق أن الصحـابي الجليل أسعد بـن زرارة قد فتح بيته لمصعب بن عمير رضوان الله عليهما؛ ليتخذ منه مقراً للدعوة، وبيتاً يأوي إليه ويأكل منه، وبذلك يضرب مثلاً في التضحية، وصورة عملية لصدق إيمانه، وترجمة لبيعته لرسول الله ﷺ. وبهذا يكون قد قدم ما يملك من إمكانيات مادية إلى جانب ما قدمه من إمكانيات معنوية، كالحماية والإرشاد وغير ذلك لمصعب، لمواصلة الدعوة إلى الله وتسهيل مهمته في المدينة.

والمسلم لا يمكن أن يكون مسلماً صادقاً في إيمانه وفياً لمعنى إسـلامه؛ ما لم يعط إسلامه كل ما يملك من مال

ووقت وإمكانيات. أما الإسلام الساكن الميت، الذي يبقى خبيء الأذهان الآسنة، أو قبيع القلوب المشتتة، فهو إسلام آخر غير ذلك الذي أراده الله لعباده الصادقين، وغير الذي فهمه مسلمو المدينة من بيعة العقبة.

كان أسعد بن زرارة مثالاً ـ أيضاً ـ لصدق بيعته وصدق إيمانه وصدق عطائه في سبيل الدعوة، ونتيجة لهذا الجهد من الداعية مصعب بن عمير والداعية أسعد بن زرارة، ونتيجة لإخلاصهما وطوافهما ساعيين في سبيل الله من دار إلى دار، ومن بيت إلى بيت، ومن عشيرة إلى أخرى، ومن قبيلة لقبيلة، بلغت دعوة الله إلى جميع الناس، وفشا الإسلام، ودخل فيه من هداه الله، وبقي على جاهليته من لم يرد الله أن يهديه.

والداعية ـ في أي مجتمع ـ مسؤول أمام الله مادام هناك بقعة من الأرض لم تبلغها دعوة الله، ومادام هناك إنسان لم يسمع كلمة الله، ولم يتعرف منهج الإسلام، ولا عذر لمسلم في قعوده عن الدعوة، ولا مبرر له في ترك مواجهة المجتمع بأسلوب حسن وطريقة مثلى، لتبليغ كلمة الله ومنهجه للإنسان في كل مكان، وليخشَ الله أولئك الذين رضوا بالقعود خوفاً من مشاق الطريق، فهناك نار أشد مشقة وأحر لظى من كل نيران الأرض، وحين يقعد المسلمون عن الدعوة يبلغهم الإثم: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون

بالمعروف، وينهون عن المنكر»[1].

أسلوب الدعوة:

سرت الدعوة في المدينة، ودخلت بيوت الأنصار، وبدأت تتكون قاعدة الإسلام هناك، وبدأت ثمار الصبر والعمل والثبات على الدعوة تؤتي أكلها.

ومصعب يعطينا نموذجاً للداعية المسلم، ولأسلوب الدعوة القائم على الموعظة الحسنة، وقد اتبعه في دعوته، فنجح أيما نجاح.

روى ابن هشام في كتابه «السيرة النبوية» أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفَر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً[2] من حوائط بني ظفر، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم. وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَيْنا ليسفّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارَيْنا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت

---

(١) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران.

(٢) الحائط: البستان.

كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدَّماً. فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلِّمه. فوقف عليهما متشتِّماً وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أَوَتـجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكرهه؛ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن. فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وما أجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطَّهر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس، في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين

فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه؛ وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك.

فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذُكر له من بني حارثة فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً! ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمْت هذا مني!! أتغشانا في دارينا بما نكره؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؛ فإن رضيت أمراً ورغبت قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. قال: فقام واغتسل وطهر ثوبيه وتشهَّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا نحلف بالله لقد رجع إليكم

سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بـن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

والقصة تعطينا صورة واضحة عن مصعب الداعية، وعن أسلوبه الحسن المؤثر في إبلاغ الدعوة للناس، فهو يأتي دور الأنصار ويدعوهم إلى الإسلام، يجلس في البستان في حي بني عبد الأشهل، ليدعو الناس ويشرح لهم مبادىء العقيدة الجديدة وحوله رجال آمنوا بالدين الجديد. وحين تـأخذ العصبية سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ـ وهما سيدا قومهما ـ فيريدان منع الرجلين ـ مصعباً وأسعد بن زرارة ـ من تبليغ الدعوة؛ يتلقاهما مصعب وأسعد بصدر رحب، وخلق رفيع، وكلام جميل، ولم يكن موقف سعد وأسيد جديـداً على مصعب، فلقد رأى من هو أشد عصبية وعناداً من قريش؛ ولذلك صبر على إيذاء الرجلين، وتهديـدهما طمعـاً في إسلامهما، وكان رابط الجأش، هادىء النفس، عميق الثقة بالله، صادق الإيمان، رحب الصدر، متدبراً للأمر، يخاطب العقل والمشاعر والفطرة والضمير، بأسلوب صـادق مؤثر

ويستجيش بنبرات كلامه العذب كل الكيان الإنساني، ولقد رأينا أسعد بن زرارة ينبّه مصعباً على مكانة الرجلين، ليعرف كيف يخاطبهما بما يتناسب مع مكانتهما وبما يؤثر فيهما وهذا واجب كل مسلم تجاه دعوته في الالتزام والطاعة والمسؤولية والتبليغ، والنصح ومعرفة ما ينبغي أن يقدم في كل موقف من المواقف وكانا حريصين على إيمانهما طمعاً بهما وبقومهما.

ورغم عصبية أسيد وسعد وغضبهما ونيتهما الإيذاء والشتم والضرب فإن أسلوب مصعب وجوابه الجميل المؤثر، جعلهما مجبرين على السماع؛ حفاظاً على مكانتهما، وكان لا بد لهما من الاستجابة لهذا الأسلوب المؤثر المعقول، ليكونا أهلاً للمكانة التي هما فيها، ولا نجد أجمل من هذا الاحترام للعقل والمكانة مع الطلب اللطيف في قول مصعب: «أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهت كُفّ عنك ما تكره» ولم يجد كلاهما غير جواب واحد يناسب هذا السؤال: «أنصفت» وفي هذا اطمئنان مبدئي لصدق الرجل، ولمنطقه الصحيح، ولتعقله، واستسلام أولي لهذا النداء الإلّهي المفحم على لسان مصعب.

ورأى سعد ـ إذن ـ أن كلام مصعب كلام مقعول وصحيح، فتنازل عن طيشه وتهديده وعصبيته، وترك ذلك جانباً، وفتح نوافذ فطرته لسماع مصعب، وأصغى بكليته لحديثه العذب، لأنه لم يجد فيه طيشاً أو سفاهة أو تهوراً، إنها كلمة الرجل الحصيف العاقل الخلوق الكريم، الذي لا

يبغي غير الحق والعدل. ويتبع مصعب أسلوب الداعية ذي الموعظة الحسنة، أسلوب الإسلام المقنع الحصيف المؤثر القوي، حين يعتمد ـ أولاً ـ على القرآن الكريم، كلام الله عزّ وجلّ بما فيه من آيات بيّنات معجزات وتصوير مؤثر، وأسلوب أخاذ، وحجة بالغة، وحقائق ينهار أمامها الباطل والعناد.

والقرآن الكريم ما زال هو الطريق والأسلوب، الطريق إلى قلوب الناس والأسلوب البليغ في الدعوة؛ لأنه يملأ القلب والفكر، ويبعث الضمائر، ويستجيش المشاعر، ويقنع العقول فترضى بدعوته، وتتمسك بهديه. روى الطبراني في معجمه وأبو نعيم في دلائل النبوة عن عروة: أن مصعباً قرأ عليهما آيات من سورة الزخرف: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم. والكتاب المبين إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. وإنه لفي أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيمٌ..﴾.

ودخل الإيمان في قلب أسيد وسعد بعد أن هزت كيانهما ومشاعرهما آيات الله وضربت في أعماق فطرتيهما لتجتث الضلال والزيف والجاهلية، وفتح كل منهما بصيرته ليعقل، ورأى الجالسون في وجهيهما علامات الإيمان، ولم يستطع كل منهما إلا وأن يعترف: «ما أحسن هذا الكلام، وأجمله» واستجاب كل منهما لنداء الفطرة، ودخل في دين الله بلا تعثر أو تباطؤ.

هكذا كان أسلوب الداعية الذي يعي قرآنه فهماً وحفظاً

وتطبيقاً؛ فتتحول آياته إلى وقائع وحقائق، ورجال وصور تتحرك على الأرض، كان هذا الأسلوب يثمر في تبليغ الدعوة إلى الناس وهدايتهم، ومازال هو الأسلوب الوحيد المثمر لدعاة الإسلام عندما يتمثلونه ويعيشون فيه وله، ويتحول فيهم إلى رجالات تتحرك في موكب القرآن وفي مجتمع القرآن، مهما كان هذا المجتمع صغيراً، ومهما تبادر إلى الأذهان أنه ضعيف أو قليل العدد إزاء طغيان الجاهلية وامتدادها وأسلحتها وأساليبها.

ونحن نعجب لأسيد بن حضير الذي تقول الرواية: إنه بعد أن أسلم بوقت قليل عمل على إرسال سعد لكي ينال الخير الذي ناله هو، وهذا يعني أن إيمانه بدأ يثمر في اللحظات الأولى، لأنه أزال عن فطرته ركام الجاهلية، وكانت نفسه صافية بفطرتها ومكنوناتها، ولذلك أوجد السبيل في احتياله على سعد، لكي يذهب إلى مصعب، ويعود بعد قليل مستبشراً مؤمناً، بعد أن أنقذه الله من الجاهلية والكفر.

أما الشيء الآخر الذي نلاحظه، فهو تلك الحرارة القوية لإيمان هؤلاء الأنصار الجدد مما دفع سعداً إلى مخاطبة قومه بأسلوب قوي، يفصل فيه بين الجاهلية والإسلام، إنه أيقن بالحق وأسلم قلبه وحياته ومستقبله وآماله لهذا الحق، لذلك أتى إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم

ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة.

لقد فهم سعد أن الإسلام حركة وعمل وتطبيق، وأنه منهج حياة وعبودية كاملة لله، وشعر ـ وهو الذي له المكانة في قومه ـ أنه لا بد وأن يكون مسؤولاً أمام الله عن هؤلاء الناس الذين أطاعوه في جاهليتهم وأعطوه ثقتهم وقيادهم إن لم يدْعُهم إلى الله عزّ وجلّ، وهذا هو الشعور الصحيح الحي للمسلم المؤمن الفاهم لأبعاد إيمانه الذي يخشى لقاء الله ويبتغي رضوانه.

إنها مسؤولية الوجهاء والزعماء، وكل مطاع في قومه أو شعبه أو أمته أو جماعة من الناس، أمام الله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وها هو يقوم بما عليه من مسؤولية وواجب نحو ربه، حتى يكون بريئاً يوم القيامة أمام الله سبحانه وتعالى.

وهكذا كانت المفاصلة بين سعد وبين قومه، وكان الحاجز القاطع بين إسلامه وبين جاهليته، حين قال لهم: «فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله» وأسلموا ولم يبق رجل أو امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، وأثمر إيمانه وصدق عمله وأنتج تأثيره في القوم. ولدى النظر في أسلوب دعوته، نرى أنه استعمل كل المؤثرات المادية

والمعنوية خدمة للإسلام، واستفاد من كل الموروثات القديمة التي عرفتها الجاهلية: من احترام الزعيم، وطاعته، والثقة به، ومؤازرته، ووجَّهه نحو الخير، وكان هذا الأسلوب مناسباً للجمع الذي يعتز برئيسه ويقول عنه: «سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة» ونستفيد من ذلك درساً بليغاً وهـو أن على الداعية أن يستفيد من كل الإمكانيات المعنوية والمادية، ويستخدمها في التأثير على من حوله في المجتمع وجلبهم إلى حظيرة الإيمان.

ويعلمنا سعد ـ أيضاً ـ درساً يختص به الزعماء والوجهاء والمتنفذون في المجتمع، والذين ينخرطون في الدعوة حين يصدقون العمل، فيعطون الإسلام عطاءً ضخماً، ويقدمون لآخرتهم خير ما يقدم مسلم لآخرته، حينما يوجهون قومهم نحو الحق الذي آمنوا به، ويدلونهم على الصراط المستقيم دون غش أو تضليل. ويعكس لنا أيضاً مدى تأثير الزعماء والمسؤولين في كل أمة وفي كل زمان على تابعيهم، وتبدو هنا ضخامة المسؤولية التي تقع على عواتقهم، فكيف بهم إذا ساروا بهم في طريق الضلال وخدعوهم! ورفعوا لهم الشعارات الكاذبة، وسلكوا بهم السبل الضالة، وساعدوهم على فعل الفحشاء والرذيلة، وألقوا بهم في الجحيم؟!!.

وبعد ذلك سينادي الجمع المخدوع الضال الذي يسير كالأنعام وراء زعامات ضالة وقادة فاسدين: ﴿ وما أضلنا إلا

المجرمون. فمالنا من شافعين. ولا صديق حميم. فلو أن لنا كرّة فنكون من المؤمنين﴾[1]. ولكن هيهات فقد فات أوان الندم، وسيحشرون جميعاً أمام الله: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً، ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزَيَّلنا بينهم. وقال شركاؤهم: ما كنتم إيانا تعبدون. فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين. هنالك تبلوُ كل نفس ما أسلفت، وردوا إلى الله مولاهم الحق، وضل عنهم ما كانوا يفترون»[2]. ولا ينتهي الجدال بين الزعماء والضالين وراءهم، بل يظل جدالهم المتحسر الخاسر أمام الله: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم، يَرْجِع بعضُهم إلى بعضٍ القول، يقول الذين استُضعِفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين!!. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار، إذ تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أنداداً، وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟﴾[3].

وأثمرت الدعوة وزاد عدد المسلمين، واستمر مصعب

(١) الآيات ٩٩ ـ ١٠٢ من سورة الشعراء.
(٢) الآيات ٢٨ ـ ٣٠ من سورة يونس.
(٣) الآيات ٣١ ـ ٣٣ من سورة سبأ.

في دعوته يخاطب الرجال ويدعوهم للإسلام، ويخاطب النساء ويبلغهم دعوة الله، ويسعى إلى القوم في بيوتهم، ويتحمل الصعاب بخلقه الإسلامي الفريد، خلق الداعية المؤمن، الذي لا يخشى إلا الله ويبلغ دعوته بالموعظة الحسنة، طامعاً في رضوان الله.

وكان لمصعب أيضاً فضل إقامة صلاة الجمعة لأول مرة في الإسلام، حيث لم يستطع رسول الله ﷺ أن يقيم الجمعة في مكة، وعندما أسلم عدد من أهل المدينة كتب رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير: «أما بعد: فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم ـ أي من ظهر الجمعة ـ فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة، فتقربوا إلى الله بركعتين»(١) وهكذا أقام مصعب صلاة الجمعة كما أمره رسول الله، وكان السابق إلى هذه الفريضة من بين جميع المسلمين.

انتهاء مهمة مصعب وبيعة العقبة الثانية:

لقد أدى مصعب المهمة التي أرسل من أجلها للمدينة، ودخل الإسلام كل بيت من بيوت الأنصار، وأصبحت المدينة أكبر موطن لتجمع المسلمين، ولذا لم يكد موسم الحج يأتي

---

(١) عن كتاب مجموعة الوثائق للعهد النبوي ص ٢١ وكتاب تهذيب الأسماء واللغات (٢ ـ ٩٦) وغيرهما.

حتى كان عدد من المسلمين هناك يتهيأون للذهاب إلى مكة ومبايعة رسول الله ﷺ على الإسلام.

يقول ابن إسحاق: «ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج مَنْ خرج من الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم من كرامته، والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله.

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك ـ وكان ممن شهد العقبة وبايع ـ: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حَرَام ـ أبو جابر ـ سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا، فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخذناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً(١).

وأخرج الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: مكث

---

(١) عن السيرة النبوية لابن هشام.

رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم: عكاظ، ومجنة، وفي المـواسم يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة» فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قومه وذوو رحمه، فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمضي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

ثم ائتمروا جميعاً، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في مكة ويخاف؟ فرحل إليه سبعون رجلاً[1]، حتى قدموا عليـه في الموسم، فـواعدنـاه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجليـن حتى توافينا، فقلنا يا رسول الله علام نبايعك؟.

قال: «تبايعونني على: السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون

(١) التحقيق أنهم اثنان وسبعون رجلاً، ولكن العرب كثيراً ما يحذفون الكسر.

منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة» فقمنا إليه، وأخذ بيده أسعد ابن زرارة ـ وهو أصغرهم ـ[1] فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم، وتعضكم السيوف؛ فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله.

قالوا: أبط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً. قال جابر: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة»[2].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: فلما اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج: إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده، وإنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وما

---

(١) وفي رواية البيهقي: وهو أصغر السبعين إلا أنا. يعني جابر نفسه.
(٢) عن حياة الصحابة (١ ـ ٣٦١).

تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن دعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت. فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام وقال:

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم. فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا[1] فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر.

واعترض أبو الهيثم بن التيهان مقالة البراء وقال: «يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم. والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ثم قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم».

---

(١) الأزر: النساء والأهل.

فأخرج الأنصار منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»[1].

وعن عاصم بن عمر بن قتادة: أن الأنصار لما اجتمعوا لمبايعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري ـ أحد بني سالم بن عوف ـ: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أُنهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه. فمن الآن فهو ـ والله إن فعلتم ـ خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه فهو ـ والله ـ خير الدنيا والآخرة.

فأجاب الأنصار: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا بذلك يا رسول الله؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه[2].

هذه هي بيعة العقبة الثانية، بيعة الحرب، التي رسَّخ فيها الإسلام في المدينة قواعده وثبَّت أركانه، وبدأ يؤسس دولته الجديدة. وهي لم تكن طفرة وصل إليها المسلمون، ولم تكن مفاجأة تفاجأ بها الدعاة، وإنما كانت نتيجة للجهاد

(١) نقلاً عن حياة الصحابة ١ ـ ٣٦٣.
(٢) عن حياة الصحابة (١ ـ ٣٦٦).

المتواصل الذي زاد على عشر سنين، وكانت ثمرة للصبر والمجاهدة وتحمل المشاق ومعاناة الكيد، دون أن يترك واحد من أبناء الدعوة لواء هذه الدعوة، ودون أن تخور عزائمهم أو ترهبهم قوى الأرض، وظلوا يعرضون الدعوة هنا وهناك، ويحملونها رغم الصعاب يبلغونها القبائل والأحياء والرجال، ويبحثون عن مكان يتخذونه قاعدة لانطلاقهم في أمر هذه الدعوة نحو العالم أجمع.

ولقد تضمنت هذه البيعة الدفاع والحرب لحماية الإسلام وحماية رسول الله ﷺ زيادة على ما في البيعة الأولى، وهذا يدل على طبيعة المرحلة الجديدة التي وصلت إليها الدعوة، بعد تكوين القاعدة الصلبة اللازمة لمرحلة الجهاد والانطلاق. وهذه البيعة تكشف لنا عن أمور مهمة حول الدعوة والمسلمين نجملها بما يلي:

١ ـ لقد كانت البيعة ثمرة للعمل الشاق لبناة الدعوة وحملة العقيدة حتى بات هؤلاء الأنصار يشعرون بتكاليف الإيمان ويتساءلون قائلين: «حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟».

٢ ـ وكانت البيعة دلالة واضحة على نجاح التربية الإسلامية للشباب والنساء والدعاة من المهاجرين والأنصار، حتى باتوا يشعرون بالمسؤولية التي تلقيها الدعوة على عاتقهم، وتقدموا لحملها راضين لا يخافون إلا الله، ولا

يرهبون من قوى الجاهلية الطاغية، وهذا دليل بارز على إيمانهم الصحيح، وفهمهم الواضح لأمور هذا الإيمان.

٣ ـ إن الأنصار الذين بايعوا الرسول يشيرون إلى تكاثر المسلمين في المدينة، وسريان العقيدة في أحيائها، وهذا يدل أيضاً على نجاح الداعية مصعب بن عمير في أداء مهمته بالمدينة خلال السنة التي قضاها هناك.

٤ ـ إن الشعور الذي دفع مسلمي المدينة للبيعة نموذج للشعور الإسلامي الصحيح، الذي ينبغي أن يحمله المسلم حياً في كل زمن، ليحس بالأمانة العظيمة والمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه، والمسلم لا يمكن أن يكون كامل الإيمان وهو آمن في بلده، مطمئن في سربه، معافى في بدنه، والمسلمون هنا وهناك يقتلون ويشردون ويعذبون، والإسلام هنا وهناك يحارب ويشوَّه، دون أن يدفعه ذلك لبذل ما يستطيع في سبيل إنقاذهم وحمل الدعوة الصحيحة للناس جميعاً.

٥ ـ إن الطريقة التي تجمّع فيها الأنصار عند العقبة تشير إلى أسلوب السرية الذي اتبعه رسول الله ﷺ والمسلمون في تدبير أمورهم، والتخطيط لدعوتهم، وإخفاء تحركاتهم. ومما أمرهم به رسول الله ﷺ لهم: «إذا هدأت الرِّجْلُ أن يوافوه الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة، وأمرهم أن لا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً» خوفاً من إثارة الضجة،

وهذا غاية ما يمكن اتخاذه من أمور الحيطة والسرية والحذر، بعد اختيار المكان والزمان والظرف، ثم مضوا دون خوف معتمدين على الله السميع البصير. وتشير الروايات إلى تفهم الأنصار لهذا النهج السري، لا سيما بعد أن عادوا إلى قومهم، إذ علمت قريش بالخبر، فجاء عدد من كبار قريش وسألوا أهل يثرب قائلين: «يا معشر الخزرج إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة، وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا، وايم الله، ما حيٌّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينه الحرب منكم».

وسكت المسلمون ولم يجيبوا تاركين لغيرهم من أهل المدينة الجواب، فانبعث من كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمناه، وجعل ابن سلول يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليّ بمثل هذا ـ لعلو مكانته بينهم في الجاهلية ـ بينما سكت الأنصار المسلمون كتماناً للسر، ووفاء بالعهد، وتطبيقاً لمنهج الدعوة السرية الضروري في هذه المرحلة.

٦ ـ لكن أسلوب السرية لم يكن أبداً عن خوف وجزع أو خشية التعذيب والمحنة، لا سيما وأن الأنصار كانوا يعلمون ما يمكن أن يقع لهم، وبايعوا على قتال الأبيض والأحمر، ومناوأة العرب. ولكن نجاح الدعوة وامتدادها يحتاج إلى هذا النهج السري في مجتمع يتكالب على المادة والشهوة والمتاع

الزائل، ويتعامى عن الحق، ويحقد على الإسلام، لكي تشق الدعوة طريقها إلى قلوب الناس دون عائق أو تشويه.

٧ ـ وحضور العباس بن عبد المطلب رضوان الله عليه ـ قبل إسلامه ـ البيعة يوحي لنا بأن دعوة الإسلام كانت تتخذ أصدقاء وأعواناً ممن حسنت نيتهم، ولم تفسد فطرهم، وتختارهم من القريبين للإسلام، ومن أحسن أهل الجاهلية خلقاً ونقيبة، وبذلك تستطيع معرفة كثير من أمور المشركين، وما يبيتونه للإسلام، ولكن ذلك لا يعني أي تنازل عن العقيدة أمام هؤلاء الناس الذين يصادقون أهل الإسلام.

٨ ـ وكانت نصوص البيعة تدل على طبيعة المرحلة التي وصلت إليها الدعوة، إذ كانت تنص على القتال والحرب والدفاع، ولهذا سميت (ببيعة الحرب) ولكن هذه البيعة لم تكن إلا بعد تمكن الإسلام من قلوب الأنصار، واختبارهم مدى عام في نشر الدعوة مع مصعب بن عمير في أحياء المدينة وبين أهلها.

٩ ـ والبيعة تنص أيضاً على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر، وهذا يشير إلى أن المسلم المؤمن بربه الذي يرتبط بعقيدته، لا بد أن يعطي ولاءه كاملاً للقيادة التي وثق بها، وأن يقدم إمكانياته طائعاً، ويبذل جهده وتضحياته في العسر واليسر، حتى تسير الدعوة في طريقها الصحيح، وتتجاوز العثرات وهذه أول متطلبات الدعوة

القائمة على التخطيط الواعي والإخلاص للعهد الذي قطعه المسلم على نفسه أمام الله رب العالمين.

١٠ ـ ومن ضرورات الدعوة أن يبذل المسلم ماله في سبيلها وينفق من ثروته كسباً لرضاء الله عزّ وجلّ، وهذا البذل هو الترجمة العملية لصدق الإيمان والوفاء بالعهد. ولهذا كان أول عمل بعد البيعة عملية التآخي التي تعتبر ذروة التضحية المادية والمعنوية لبناء المجتمع الجديد، وإقامة أسس الدولة الوليدة، وضمان تراص هذا المجتمع.

١١ ـ ومن الأمور التي بايع عليها الأنصار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا معناه مواصلة الدعوة، بل حمل لوائها على أسس ثابتة منظمة واعية، والتضحية بالغالي والنفيس في سبيل هذه الدعوة دون خوف ولا وجل.

ولهذا كان الأنصار يعلمون أنهم قد قطعوا وشائج الدم والقربى والعشيرة والقبيلة، من أجل الدعوة تمسكاً بالحق وإرضاء لله رب العالمين.

١٢ ـ وجزاء لهذه البيعة كانت الجنة، ليس مالاً ولا نصراً ولا جاهاً، لأن المسلم الصادق يشعر بأن نعيم الجنة لا يعدله نعيم، ويعلم علم اليقين أن ملك الدنيا كلها لا يساوي نصيب أدنى رجل في الجنة، ولهذا كان المسلم يقدم على الشهادة والبذل والتضحية بدافع عظيم، لأنه يرى بعينه على بعد خطوات أن الجنة قد فتحت أبوابها له. وهذا يعلمنا أن

الهدف الأسمى للمسلم من وراء كل عمل وبذل وتضحية هو رضاء الله سبحانه فقط، وحسبنا ذلك من جزاء عظيم.

هذه هي البيعة التي كانت نهاية سنة غنية بالعمل الجاد والدعوة المستمرة عمل فيها مصعب بن عمير بكل جهده وإحساسه وعاطفته ووعيه وفكره، وصحته وهناءته، وبهذه البيعة كان الإسلام قد خطا خطوة حاسمة. وكانت الحركة الإسلامية قد وصلت إلى نقطة التحول المهمة التي تأسس بعدها المجتمع الجديد، قائماً على القاعدة الصلبة المؤلفة من المهاجرين والأنصار، «حيث اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة، مع السابقين من الأنصار، وكانت بيعتهم دليلاً على عنصرهم الأصيل المكافىء لطبيعة هذا الدين»[1].

الهجرة إلى المدينة:

كانت الهجرة إلى المدينة ثمرة عمل منظم للدعوة، وتتويجاً لجهود القلة المؤمنة بقيادة رسول الله ﷺ في مكة، وبعد بيعة العقبة أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة، فكان مصعب أول المهاجرين، وتبعه المسلمون حتى لم يبق غير قلة من المسلمين مع رسول الله.

(١) انظر في ظلال القرآن (١٠ ـ ٨١).

ثم أذن الله لرسوله بالهجرة بعد أن هاجر معظم أصحابه، وأعدّ الرسول ﷺ للهجرة إعداداً يدل على منهج الحركة الواعي القائم على العمل والتخطيط والوعي والثقة بالله، حتى فشلت قريش في إدراكه، وحفظه الله من كيدها.

واستقبلت المدينة رسول الله أروع استقبال، فقامت دولة الإسلام، دولة العقيدة الفتية هناك.

وحين نعود إلى تضحيات الأنصار والإخاء الذي ربط بين قلوب المسلمين، أنصارهم ومهاجريهم. حينها ندرك أثر العقيدة في تربية الفرد والمجتمع وإقامة الدول والحضارات، ولا نعجب حينها إذا انطلق المجتمع الفتي يتسع، ويكتسح قوة الطغاة والجبابرة بسنين قصيرة.

وفي ذلك الوقت ابتدأت مرحلة الجهاد بالسيف، والتضحية بالأرواح، وأضحت للعقيدة حدود في المكان، لا يمكن أن يتجاوزها طغيان الجاهلية إلا على أجساد المؤمنين الشهداء.

لقد انصهرت الأعداد المؤمنة في بوتقة مجتمع واحد، في حرارة الإيمان الذي لا يخمد ضوؤه، المجتمع الذي صنعته العقيدة، ورباه القرآن، ورعته يد رسول الله صلوات الله عليه؛ وضحّى من أجله المؤمنون الصادقون.

تأسس المجتمع الجديد بعد أن خلع بُناته وأبناؤه كل الجاهلية من أعناقهم: منهجها، وعقيدتها، وخلقها،

وتقاليدها، واستسلموا لله خائفين راضين، وآمنوا بـه حق الإيمان، وأقاموا المجتمع الجديد ربانياً يعبد الله، ولا يشرك به شيئاً، ويحكم بمنهج الله كلاًّ متكاملاً، مجتمعاً متماسكاً صلباً قوياً، تجمع بين أفـراده أخوة الإيمان التي كانت ولا تزال رابطة المجتمع الإسلامي وميزته الفريدة بين المجتمعات.

وكـان التآخي بعـد ذلك، فـآخى رسـول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فتآخى مصعب بن عمير مع أبي أيوب الأنصاري، الصحابي المجاهد الذي لم يغفل لحظة عن الجهاد طيلة حياته، حتى استشهد على أبواب القسطنطينية، ودفن هناك بعد أن أوصى بأن تـدوس قبره خيل المسلمين.

مُصْعَبُ المجاهِـدُ

لقد انتهت المرحلة السابقة، ونجح المسلمون في معركة الصبر والصمود، وفشلت كل محاولات الجاهلية لفتنتهم ومنع انتشار الدعوة، وأفلت الأمر من يد زعماء قريش بعد هجرة رسول الله ﷺ، وغدا المؤمنون قوة أخرى غير تلك الفئة الصابرة المطاردة في مكة والحبشة، وأضحى هؤلاء الذين صبروا في محن الطريق وثبتوا أمام طغيان الكفر، وتحملوا بشمم كل أنواع العذاب، أضحوا يستحقون النصر من الله سبحانه وتعالى، فقامت دولة الإسلام الأولى.

من أجل هذا أصبح واقع الدعوة غير ما كان عليه من قبل، فاليوم غدا المؤمنون مجتمعاً متحداً متكاملاً، وأذن الله لهم بالقتال والجهاد للدفاع عن العقيدة ولنشر الدعوة في أرجاء الأرض، فشعرت قوى الجاهلية بالخطر، وأحست بالضيق، فأصبحت حذرة إزاء حركة المسلمين ودعوتهم، لا سيما بعد أن بدأت السرايا والبعوث تنطلق من المدينة إلى جهات مختلفة، ووقف المسلمون ينتظرون اللحظات الحاسمة، التي يفصل فيها بين قوى الجاهلية وقوى الحق،

لترتفع كلمة الله فوق مكة والعالم.

وإذا كان المسلمون بالأمس يواجهون الجاهلية بالصبر والتحمل والثبات، فهم اليوم يقفون إزاءها بالسيف والرمح أيضاً، ويكيلون لها الضربات القاتلة، لكي تثوب إلى الله إن لم تنفعها الكلمة الطيبة، وكانوا يعلمون أن هذا الجهاد الذي فرضه الله عليهم ـ ابتداء من هذه المرحلة ـ لم يكن قتالاً من أجل النصر فقط، لا، فهذا أبخس ما فيه إن تجرد من بقية غاياته، أو من غايته الكبرى التي تهدف إلى تحرير الإنسان ـ كل الإنسان ـ في الأرض من عبوديته لغير الله، ورده إلى فطرته السليمة وبارئه الحق، ليكون عبداً لله وحده. ومن أجل هذا فقد شرع الله الجهاد بعد أن لم يبق عذر بعيد أو قريب، حين بلَّغ رسول الله الناس، ودعاهم للدين الجديد بكل وسيلة، وحذر وأنذر، وبيَّن وشرح، ومع ذلك فإن الجاهلية لجأت للبطش والتعذيب والقتل والتآمر على رسول الله صلوات الله عليه. ولهذا فقد كان شرع الجهاد متماشياً مع المرحلة التي وصلت إليها الدعوة، كي تكون واقعية في مواجهة الباطل، ومتكافئة في استخدام الوسيلة، وهي من سمات هذا الدين الأصيلة[1]، فكان الإذن بالجهاد لكي تستطيع الدعوة مواصلة سيرها في المجتمع الذي وقف ضدها بكل وسيلة.

(١) انظر في ظلال القرآن مقدمة سورة الأنفال، ومعالم في الطريق، فصل الجهاد، وكتاب (الجهاد) للمودودي.

ومصعب بن عمير ـ رضوان الله عليه ـ الذي اجتاز المرحلة السابقة، صابراً محتسباً، ثابتاً في طريق الدعوة أمام كل الصعاب والضغوط المادية والمعنوية، مصعب هذا أصبح اليوم ينتظر الجهاد، ليواصل الدعوة أيضاً، ليحمل السيف والرمح، ويقاتل بالضرب والطعن ضد طغيان الجاهلية، وسيكون هنا قوياً صلباً ثابتاً شجاعاً، كما كان في مواطن الدعوة الأولى، ثابتاً صلباً، قوياً شجاعاً، لأن الشخصية المسلمة واحدة في طبيعتها وتكوينها، وحين تسلم لله فإنها تسلم بكيانها كله، وحين تبايع الله فإنها تبايعه على العسر واليسر والمنشط والمكره، باللسان والقلب، والكلمة والسيف.

ولن يكون مصعب إلا في مقدمة الصفوف، وبين طلائع المجاهدين، كما كان في مقدمة الصفوف المؤمنة في مكة، لأنه سمع نداء الله تعالى: ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض، لهدمت صوامعُ وبيعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾[1].

وها هو مصعب يخوض معركة بدر بعد أن انتصر في

---

(١) انظر ظلال القرآن مقدمة سورة الأنفال، في سبب كف الله سبحانه المسلمين من القتال في مكة. وهذه الآيات من سورة الحج ٣٨ ـ ٤٠.

معركة الجهاد الأولى مع نفسه، ضد الشيطان وضد شهوات الدنيا ومغرياتها ومصالحها، وضد كل شارة غير شارة الإسلام، وضد كل دافع إلا دافع العبودية لله وتحقيق سلطانه في الأرض.

كانت غزوة بدر عقب سرايا كثيرة سبقتها، لم يقع فيها قتال إلا في واحدة منها[1]، وهذه قصة تلك الغزوة في لمحات:

سمع رسول الله ﷺ بقافلة قادمة من الشام بقيادة أبي سفيان وفيها أموال قريش وتجارة من تجاراتها، يحرسها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، فندب المسلمين إليها وقال: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها» واستجاب المسلمون من المهاجرين والأنصار لدعوة رسول الله، وعلم أبو سفيان بخروج جيش المسلمين، فبعث من يخبر قريشاً، ويستنفر قواها، حتى خرجت بجيش كبير ليخلصوا تجارتهم.

ولما علم رسول الله بخروجهم ونجاة قافلة أبي سفيان استشار أصحابه في ملاقاة القوم وشجعهم على ذلك، فاستجابوا له، وسمع منهم كلاماً ملأه سروراً وأملاً بالنصر،

(١) هذه السرية التي وقع فيها القتال هي سرية عبدالله بن جحش، وكانت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة.

وسار كلا الجيشين حتى أصبحا في مواجهة بعضهما في بدر.

ولقد كان لمصعب دوره الجيد هنا، كيف لا وإنه الداعية الأول في المدينة، والمعلم المقرىء الذي اختاره رسول الله ﷺ ليكون مرشداً للأنصار في المدينة!! إن مَنْ باع نفسه لله، وتحمل كل المشاق القاسية في سبيل الله، ورفض الرفاه والتنعم، والجاه والمال والحب والرعاية من أجل الإيمان، سيكون هنا في طليعة المجاهدين طمعاً في رضوان الله.

وكان مصعب يحمل اللواء في الجهاد، كما حمل مشعل الهداية في دروب المدينة وبين أحيائها، وكان في أول الصفوف وفي مقدمة المقاتلين، كما كان بالأمس في مقدمة الصابرين والمهاجرين في سبيل الله.

إن حامل اللواء لن يكون إلا من الرجال الشجعان، من صفوة القوم الذين لا يتزعزع إيمانهم، ولا تنثني ركبهم، ولا تتراجع أقدامهم، إنه من الصامدين في موطن القتال، ومن راسخي الإيمان شديدي الطمأنينة، الواثقين بوعد الله.

وكان مصعبٌ نموذجاً للمؤمن الشجاع الصامد القوي المطمئن، الذي يندفع لاختراق صفوف الأعداء كي يفوز برضوان الله. وَحَمل اللواء ورفعه عالياً شامخاً في سبيل الله، لا يتقهقر ولا تلين له قناة، ولا تنحني له هامة أمام قوة الأعداء.

وأصبح الجيشان قريبين من بعضهما، ولم تبق إلا لحظات

حتى يتلاقيا: جيش مليء بالعدة الوافرة، كثير عدده، يغلي قادته وجنوده بغيظ فاجر ظالم، وتمتلىء أكبادهم بالحقد والغيظ والحنق. وجيش قليل العدد، ضئيل العدة، يملأ قلب قائده وجنوده الإيمان والثقة والاطمئنان والحماسة.

ذاك ينتظر من الطواغيت والأصنام النصر والفوز، حتى يتمكن من احتساء الخمر، واقتراف الذنوب، وسماع القيان. وهذا ينتظر من الله الرضى ويطلب إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

وابتدأت المعركة بالمناوشات والمبارزة إذ خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي ـ وكان شرساً سيء الخلق ـ فقال: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم[1] أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه. فلما خرج لقيه حمزة ـ رضي الله عنه ـ فضربه فأطنَّ قدمه (أطارها)، لكنه ظل يحبو إلى الحوض حتى اقتحمه يريد أن يبر بقسمه، فاتبعه حمزة وقتله على الحوض. ثم خرج ثلاثة من قادة قريش: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنه الوليد، ودعوا إلى المبارزة، فخرج إليهم رهط من الأنصار: عوف ومعاذ ابنا الحارث وعبدالله بن رواحة. لكن القرشيين قالوا: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فأمر رسول الله ﷺ: عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب،

(١) هو حوص ماء بناه المسلمون ليشربوا منه.

وعلي بن أبي طالب بالخروج، واستطاع الأبطال المسلمون أن يجهزوا على الثلاثة الكفرة، وأصيب عبيدة بجرح منعه من متابعة القتال.

وهنا كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالثبات، وأن لا يحملوا على القوم حتى يأمرهم: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبلٍ» وعدَّل الصفوف ثم دخل عريشه[1] يناشد رب العالمين قائلاً: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد».

والتحم الجيشان، واختلط الناس، وبرزت الفئة القليلة المؤمنة تجرب إيمانها على محك البطولة، واندفعت جموع الشرك تريد أن تنزل اللواء المرتفع بيد مصعب، لكنه أبى، وظل البطل القوي المؤمن إلى آخر المعركة. وكانت جموع المسلمين من حوله تنافح عن لواء رسول الله ﷺ، وتدفع الأمواج بعد الأمواج، ومصعب يهدر به كالأسد نحو الجموع المشركة.

وكيف يتراجع المؤمنون آنذاك؟! ها هم يسمعون رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده؛ لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل، صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»

---

(١) العريش: خيمة بناها المسلمون لرسول الله ﷺ: ليكون فيها ويخطط للمعركة ويصدر أوامره.

وها هم يَشْتمُّون رائحة الجنة، ويـرون بأعينهم نعيمهـا، ويتذوقون طعم الرضوان.

ها هو مصعب في وسط القوم كالأسد الضاري، واللواء ـ لواء الحق ـ ما زال يرتفع، لقد اخترق به الصفوف، وغدا فوق المشركين، إنه يشعر مع إخوانه من المسلمين بعون الله، وتملأ قلوبهم الثقة به، فلا خوف ولا جزع، بل شجاعة وعزيمة لا تلين أمام أية صعوبة.

الموت غير الموت!! الموت ـ اليوم ـ نعيم يشتهى، والقتل كرامة تبتغى، والاقتحام شهادة لا يعطاها إلا المخلصون، فليهتف مصعب وصحبه:

ركـضـاً إلـى الله بـغـيـر زاد
إلَّا الـتـقـى وعـمـل الـمـعـاد

وليركضوا إلى الله حاسرين، وليقتحموا الصفوف فرحين إلى موعود الله في النصر أو الشهادة.

هـذا أخ لمصعب الصابر الشجاع حامل اللواء، هو عمير بن الحمام، يسمع رسول الله يعد بالجنة للمقاتل في سبيل الله، الصابر المحتسب، المقبل الذي لا يدبر، فيرى الجنة أمامه، ويشم ريحها بأنفه، فيلقي بتمرات يأكلهن، وهن كل ما معه من الدنيا ويقول: بَخٍ بَخٍ!! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم يأخذ سيفه ويقاتل

حتى يلقى الله شهيداً وهو يهتف:

ركـــضـــاً إلـــى الله بـــغـــيـــر زاد
إلَّا الـــتـــقـــى وعـــمـــل الـــمـــعـــاد
والـــصـــبـــر فـــي الله عـــلـى الـــجـــهـــاد
وكـــل زاد عـــرضـــة الـــنـــفـــاد
غير التقى والبر والرشاد

وأخ آخر لمصعب هو عوف بن الحارث، يأتي إلى رسول الله ﷺ يسأله: ما يضحك الرب من عبده يا رسول الله؟.

فقال الرسول القائد عليه الصلاة والسلام: «غمسه يده في العدو حاسراً».

فانتفض عوف، ونزع درعاً كانت عليه وقذفها، وأخذ سيفه وقاتل وقاتل حتى أكرمه الله بالشهادة.

وظلت المعركة محتدمة ومصعب في قلب الصفوف يحمل اللواء خفافاً عالياً، شامخاً شموخ الإيمان الذي لا يذل، عالياً علو العقيدة التي لا تنهزم، يقاتل يميناً وشمالاً، وصرخات الحق بين جنبيه عالية الله أكبر، الله أكبر، والمشركون يفرون ويجزعون، ويخرون صرعى، أو يطأطئون الرؤوس ليقودها المسلمون أسيرة ذليلة.

وانكشفت المعركة عن هزيمة مخزية لجمـوع الشرك، حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وراح الباقون يفرون

خوفاً على أرواحهم وأنفسهم، وقتل فيمن قتل من المشركين هؤلاء الطغاة: أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة وغيرهم.

وكانت هذه المعركة انتصاراً حاسماً لقوى الدعوة الإسلامية، ولدعاة الإسلام، ومنحت المسلمين عزيمة جديدة للانطلاق في دعوتهم إلى آفاق أخرى، بينما أعطت المشركين درساً قاسياً بقوا يلعقون مرارته سنين كثيرة.

انتهت معركة بدر بهزيمة المشركين وانتصار الدعوة، وكان هذا ذا دلالة مؤثرة، إذ كشف عن حقيقة ذلك الطراز من الدعاة المؤمنين ـ أمثال مصعب ـ الذين صبروا في المحن، وضحوا من أجل العقيدة، وقاتلوا دفاعاً عن الدعوة، ابتغاء لمرضاة الله سبحانه وتعالى.

إن هؤلاء المؤمنين صنعوا بدراً معلماً في تاريخ الدعوة؛ كما صنعوا لنا تلك الذرا من البطولات في شتى الميادين، وتركوا لنا ذكريات لا تنسى، وخطوا لنا معالم الطريق في خط الدعوة الطويل، ولهذا بقيت بدر رمزاً للانتصار الحاسم العظيم، وشعراً في سجل البطولة الرائعة والتضحيات المثلى، وكانت ـ إلى جانب ذلك ـ انعطافاً في تاريخ العالم، ونقطة تحول في مسيرة الدعوة الإسلامية.

وستبقى بدر كنزاً من العبر للمسلمين وللبشرية جمعاء،

ونبعاً فياضاً من المعاني الواقعية والدروس العملية لدعاة الإسلام.

لقد رأينا في بدر روحاً وثَّابة تشتاق لنعيم الله ورضوانه، وتريد أن تنعتق من إسار الدنيا لتحظى بنعيم الآخرة.

ورأينا صوراً من الإيمان المتحرك العجيب، الذي فجر الطاقات الكامنة، وحول العزائم النائمة، وجعل من المستضعفين أبطالاً شجعاناً[1].

ورأينا في بدر كيف بدأت الحياة الراشدة تتجمع وتتكون ويقوم الانفصال على أساس العقيدة، حيث أصبحت شريعة الله هي الميزان، واضمحلت موازين العصبية والعشائرية وغيرها.

إن بدراً وضحت لنا حقيقة خالدة هي: أن الإيمان أقوى من السلاح والكثرة، وأكثر أهمية من العتاد والرجال ـ حين يعز العتاد والرجال ـ، وأن الحق أقوى من الطاغوت والطغيان؛ لأن الحق والإيمان يستمدان القوة من الله رب العالمين، ولا قوة أمام قوة الله.

إن بدراً صورة من صور الإيمان الذي تمثل في هؤلاء المؤمنين الذين ترجموا الإيمان إلى حقائق عملية، فكانت

(١) انظر عمل عبدالله بن مسعود في معركة بدر، وعمل بلال أيضاً في سيرة ابن هشام.

عملاً وحركة وبطولة، وتضحية واستشهاداً؛ ولهذا كانت نصراً حاسماً.

ولهذا فقد بدا ميزان المعارك منذ بدر يتبدل، إذ أصبحت أمور الحياة تصنع بيد الفئة المؤمنة، التي تستعين بالله، وتستهدي بالله، ولا تخاف غير الله، ولا ترجو غير رضوانه. وهي تسعى لتحقيق منهج الله في الأرض، وترفع كلمة الله عالية في كل مكان.

ولقد أثبت الدعاة المؤمنون أن معركة السلاح ومواجهة الموت أمنية من أماني المسلم، حين لا ينفع مع الجاهلية غير طريق السلاح، لأن المسلم يستطيع أن يذوق حلاوة الشهادة التي تعادل عنده كل شيء، لكي ينعم بعدها بفيض من الرضوان الذي لا حد لسعادته ونعيمه، ولهذا كان كل واحد من المهاجرين والأنصار يرى في بدر أول امتحان إيجابي بعد فترة الإعداد الأول.

وكان سير المعركة يوضح لنا صورة الإيمان المترسخ في الأعماق الشامخ في سماء الدنيا، الذي يتحول إلى بطولات وفداء، إلى إقدام وشجاعة، إلى ثقة لا حد لها بالله.

وليست صورة مصعب بن عمير ـ حامل اللواء، الصامد الثابت ـ وصورة عمير بن الحمام، وعوف بن الحارث، وعبدالله بن مسعود وحمزة بن عبد المطلب، وبلال بن رباح،

وغيرهم ـ رضوان الله عليهم ـ إلا نموذجاً حياً على معاني الإيمان الحقيقية.

كان كل واحد من المسلمين يعرف أن الوعد بالنصر ليس هو البغية الأساسية لهم، لا هذا ولا امتلاك الأرض كلها، إن هذا سيأتي في الطريق، ولكن الغاية القصوى السامقة التي يركضون إليها حاسرين، جائعين بغير زاد من الدنيا غير التقوى؛ إن تلك الغاية هي رضوان الله وحده والظفر برحمته وجنته ومغفرته، ذلك هو المطمح والهدف والأمل البعيد، الذي لا تطوله يد الإنسان إلا عن هذا الطريق، كما يوضحه رسول الله صلوات الله عليه وهو يخاطب المؤمنين: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» وفي قوله: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

ونخلص من هذا كله: إلى أن التربية التي أنشأت هذه الفئة المؤمنة، قد غيرت كل المفاهيم التي عاشت معهم في جاهليتهم. فلا عجب بعدها أن نرى الحفنة الجاهلة الجائعة العارية القليلة المطاردة تنقلب إلى قوة هائلة؛ تطارد فلول المشركين، وتكسب المعارك الخالدة في بدر وغير بدر.

إن كل الذين ساروا في طريق الدعوة، وتربوا هذه التربية، وتفهموا حقيقة العقيدة، وقاسوا آلام الطريق، وذاقوا عذاب المخاض، وضحوا في سبيل ذلك بكل شيء، كل هؤلاء

نظروا إلى رضوان الله، وتطلعوا إلى الشهادة بأمل ولهفة، وهؤلاء هم الذين عرفوا بدراً ووصلوا إلى بدر، وصنعوا بدراً، وهؤلاء هم الذين انتصروا على الأحزاب، وثبتوا في حنين، وصمدوا لفيلة الفرس في القادسية، ودخلوا المدائن، وفتحوا فارس والهند والأندلس، وأداروا معركة اليرموك وغيرها في بلاد الشام، وتسوروا دمشق، وطهروا القدس وكبروا باسم الله فوق صخرتها بعد طرد الصليبيين منها.

نعم هنا وهناك، أعادوا ذكرى بدر في جهادهم وعملهم، وبدر الإيمان، بدر القوة، بدر الإسلام، بدر النصر تعود كلما سار الناس على طريق الإيمان، طريق الإسلام.

* * *

مصعب أمام أسرى بدر:

نعرض هنا لموقفين عظيمين لمصعب بن عمير، حامل اللواء في بدر، لنرى كيف تحولت مواقف الشاب القرشي بعد إسلامه، وكيف غدت العقيدة عنده فوق الولاء العشائري والصداقات الجاهلية، وأي اعتبارات أخرى.

بعد أن انتهت المعركة، كان المقداد بن عمرو قد أسر النضر بن الحارث[١]، فأتى به إلى رسول الله ﷺ، فأمر علياً

(١) وهو الذي كان يقول لرسول الله ﷺ: «إن كان قرآنك من عند الله فأحي لنا آباءنا، وأوسع لنا في بلدنا، بأن تسير هذه الجبال عنا، فقد ضيقت =

ـ رضي الله عنه ـ بضرب عنقه، فقال المقداد: أسيري يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ورسوله ما يقول!! ثم قال: اللهم أغنِ المقداد من فضلك» وكان النضر قد قال ـ وقد جيء به أسيراً لرجل جنبه ـ: محمد والله قاتلي، لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت، ثم نظر إلى مصعب بن عمير وقال له: يا مصعب، أنت أقربُ مَنْ ههنا إليّ، وأمسهم رَحِماً بي. فكلم صاحبك في أن يجعلني كرجل من أصحابي[1].

فقال له مصعب ـ وهو يذكر ما كان يقول في الله ورسوله ـ: «إنك كنت تقول كذا وكذا وتفعل كذا وكذا!!» فقال له: يا مصعب، ليس هذا الحين عتاب، فسله أن يجعلني كرجل من أصحابي، فلو أسرتك قريش لدافعت عنك! فقال مصعب: «أنت صادق، ولست مثلك، إن الإسلام قد قطع العهود بيننا وبينكم»[2].

وهذا هو موقف العقيدة، موقف المجاهد الداعية، الذي قطع ما بينه وبين الدنيا من أهل وأخوة وعشيرة، ووصل ما بينه وبين المؤمنين في أقطار الأرض، ولهذا فلن يحيد عن

= مكة علينا، أو اجعل لنا الصفا ذهباً نستغني عن الرحلة، فإن فعلت آمنّا بك» وكان شديد الإيذاء لرسول الله ﷺ.

(١) يريد أن يبقي عليه أسيراً ولا يقتله.

(٢) عن كتاب أنساب الأشراف للبلاذري.

منهج الله وأمر رسوله في قتل المشرك الطاغية، مهما كانت قرباه ومودّته.

إن الإسلام أتى ليبطل حكم الجاهلية، وليضع شريعة الله فوق كل شريعة، وليكون منهجه هو المنهج الذي يحكم البشر، وما كان لمؤمن صادق الإيمان أن يقبل حكم الجاهلية، أو ينزع إلى عاطفة أو ولاء، غير عاطفة الإسلام والولاء للدعوة، ولن يكون للمؤمن أن يقبل في أمر من الأمور غير ما ارتضاه الله ورسوله مهما كانت التضحية وكان الفداء.

وموقف آخر يقفه مصعب في المعركة، أبلغ أثراً، وأكثر وضوحاً ودلالة، إنه موقفه مع أخيه أبي عزيز، الذي كان بين الأسرى[1].

لقد وزع رسول الله الأسرى بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيراً» وكان أبو عزيز بن عمير، أخو مصعب لأبيه وأمه بين هؤلاء الأسرى، فقال أبو عزيز ـ يقص ما جرى له مع أخيه مصعب حينها ـ: مرَّ بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال مصعب للأنصاري: شدّ يديك به؛ فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقلت له: يا أخي؛ هذه وصاتك بي؟! فقال مصعب: إنه أخي دونك!!».

وسألت أمه ـ بعد ذلك ـ عن أغلى فدية دفعت لأسير من

(١) كان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث.

قريش، فقالوا لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها.

لك الله يا مصعب! لقد أعطيتنا مثلاً حياً رائعاً، حين تخليت عن وشائج القربى القريبة والدم والنسب، ولتضع مكان ذلك وشائج العقيدة وأخوة الإيمان، ولم تؤثر أية مصلحة دون مصلحة الإسلام، وأردت أن تعرفنا أنه لا يستقيم إيمان مع أهواء النفوس وميولها.

* * *

وهكذا انتهت معركة بدر. وكان مصعب واحداً من أبطالها وحامل لوائها يخوض غمار المعركة بثبات وصبر وشجاعة، كما كان في موطن الدعوة الأول يخوض غمارها بصبر وعزيمة وشجاعة.

إنه الداعية والمجاهد، يجاهد وحده، ويصبر وحده، ويدعو وحده، حين كانت ظروف الدعوة تستلزم منه ذاك.

ويجاهد بين جموع المؤمنين؛ لبنة متراصة مع الصف الإسلامي المتين، يوم غدت قوى الإيمان ينتظمها جيش واحد، يقوده الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه. فحق له وللمجاهدين من أهل بدر أن يقول عنهم رسول الله مخاطباً عمر: «وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!!»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

مُصْعَبُ الشّهيدُ

لقد انتهت بدر بانتصار كبير للدعوة الإسلامية، وأحس المشركون بعدها أن جذور الجاهلية بدأت تتحرك وتهتز، قبل أن تقتلع نهائياً من الجزيرة العربية، وأحسوا أيضاً أن مصالحهم في مهب الريح، وأن تجارتهم أضحت تحت رحمة المسلمين. لذلك عمت مكة الأحزان، وعلت الأصوات تدعو للاجتماع والثأر وغلت أندية قريش وبيوتها بالغيظ والحنق والحقد، وقام عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ـ ممّن أُصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ـ فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتَرَكم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا.

واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ومقاومة الدعوة، وتألفت القوة الجديدة من قريش وأحابيش مكة، وعدد من قبائل كنانة وأهل تهامة، وقدّم الأثرياء المال والمتاع والسلاح ودواب الركوب حتى تكوَّن جيش كبير يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل

ومعهم الظُّعُن حتى لا يفروا، ومن النساء اللواتي خرجن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وخرجت زوج عكرمة بن أبي جهل وغيرهن كثير، وكان على رأس خيل قريش ـ التي بلغت مئة فارس ـ خالد بن الوليد، وقائد الجيش كله هو أبو سفيان بن حرب.

وعلم رسول الله بخروجهم، فاستشار أصحابه، فأشار أكثرهم وخاصة من لم يشهد بدراً بالخروج للقاء العدو خارج المدينة، بينما كان رسول الله مع كبار الصحابة يرى أن يبقى المسلمون في المدينة، فيقاتلون المشركين لأنهم يملكون فيها من إمكانات القتال ما لا يملكه الأعداء. ولكن كثيراً من الناس كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: يا نبي الله لا تحرمنا الجنة، وهكذا قرر رسول الله ﷺ أن يخرج نزولاً عند رغبة الأكثرية من المسلمين.

وبلغ جيش المسلمين ألفاً من الرجال، وفي الطريق تخلى عن الجيش عبدالله بن أُبيّ مع عدد من المنافقين، حتى بقي عدد الجيش سبعمائة رجل، وشعر المسلمون بأنهم ربما أكرهوا رسول الله على الخروج، وخافوا أن يكون في ذلك مخالفة لأمر الله، فجاء إليه رجال من الذين أشاروا بالخروج، وقالوا له: يا رسول الله، امكث كما أمرتنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب، وأذَّن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل، وقد دعوتكم

إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو، وانظروا ماذا أمركم الله فافعلوا».

وسار جيش المسلمين حتى التقى بالمشركين عند جبل أحد، وجاءت قريش بكل طاقاتها وحقدها وغيظها وثأرها تريد القضاء على الإسلام والمسلمين، ولكي تسترد كرامتها وتثأر لقتلاها في بدر، وكانت النسوة وراءهن ينشدن، ويحرضن على القتال، ويحمسن الرجال، ويذكين الثأر والحقد عندهم، وها هي هند بنت عتبة مع بقية الجيش يضربن على الدفوف، ويحرضن على القتال، وينشدن محمسات بني عبد الدار أصحاب اللواء وغيرهم قائلات:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبار ضرباً بكل بتّار

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ونزل جيش المشركين مقابل المدينة على شفير الوادي، بينما نزل جيش المسلمين في الشِّعب من أحد، في غدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، ثم أمر رسول الله ﷺ الرماة ـ وعددهم خمسون ـ أن ينضحوا الخيل عن جيش المسلمين حتى لا يأتوا من خلفهم، وقال لرئيسهم عبدالله بن جبير: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتينَّ من قبلك» ثم دفع اللواء إلى مصعب بن عمير.

ودارت المعركة شديدة حامية، المسلمون يدافعون عن عقيدتهم، ويرفعون كلمة الله عالياً، يحفزهم حب الشهادة والفوز برضوان الله أو النصر على أعداء الله. والمشركون يقاتلون دفاعاً عن أوثان عبدوها، وطواغيت أطاعوها، وأباطيل قدسوها وانتقاماً لقتلاهم يوم بدر. والحقد يملأ قلوبهم، وحب الانتقام يدفعهم للتشفي من المسلمين وأبطالهم، الذين أبلوا أحسن البلاء في بدر، ولا سيما حمزة بن عبد المطلب. ومن أجل هذا أعدت هند بنت عتبة غلاماً حبشياً يقال له وحشي؟ يتقن قذف الحربة وقالت له: «ويهاً أبا دسمة! اشفِ واشتفِ» ووعدته مع سيده جبير بن مطعم بأن يصبح حراً إن قتل حمزة.

وكان المسلمون على أشدهم في المعركة؛ تضحية وثباتاً وإقبالاً على الشهادة، وبعد فترة من القتال انكشف جيش المشركين، وأيقنوا بالهزيمة وبدأ المسلمون يلاحقونهم بالسيوف، والهزيمة تلاحق الكفرة، حتى روى عبدالله بن الزبير عن أبيه قال: «والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم[1] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير».

ولاح النصر للمسلمين في الأفق بعد حملات أبطالهم، ولا سيما حمزة وعلي وأبي دجانة وآخرين ـ رضوان الله

---

(١) الخدم: الخلخال.

عليهم ـ وكان أبو دجانة قد أخذ سيف رسول الله ﷺ وبدأ يمعن في الكفار قتلاً وجرحاً، وعلى رأسه عصابة الموت الحمراء وهو ينشد بأعلى صوته خائضاً في صفوف المشركين:

أنا الذي عاهدني خليلي
ونحن بالسفح لدى النخيل
أنا لا أقومَ الدهر في الكيول[1]
أضرب بسيف الله والرسول

ولم يلق واحداً من المشركين إلا قتله، حتى رأى هند بنت عتبة، فحمل السيف على مفرقها ثم عدله عنها إكراماً لسيف رسول الله ﷺ أن يضرب امرأة.

أما مصعب بن عمير فقد أبلى بلاء حسناً في هذه المعركة أيضاً، إذ كان حامل اللواء هنا كما كان في بدر، فقاتل قتال المؤمنين الأبطال دفاعاً عن عقيدته وعن لواء الحق الذي يحمله.

وكان رسول الله صلوات الله عليه قد دفع إليه اللواء لصدقه في الإيمان وثباته في القتال، وشجاعته في الصدام، لا سيما عندما رأى لواء المشركين مع طلحة بن عثمان العبدري ـ وهو من بني عبد الدار أصحاب اللواء في الجاهلية ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بالوفاء»

(١) الكيول: آخر الصفوف وهو بتشديد الياء ولكنها خففت في الشعر.

ودفـع اللواء لمصعب ليدل على تكـريم مصعب الداعيـة المجاهد [1].

ولكن المعركة تحولت فجاءة لصالح المشركين بعد أن ترك رماة المسلمين الجبل، عندما رأوا هزيمة المشركين ومطاردة المسلمين لهم، فطمعوا في الغنيمة ولم يستمعوا لنداء رئيسهم عبدالله بـن جبير رضي الله عنه بعدم النزول. وعندما رأى المشركون خلو الجبل من الرماة؛ انتهز هذه الفرصة خالد بن لوليد مع فرسان قريش، وصعدوا الجبل فقتلوا بقية الرماة الصامدين، وكروا على مؤخرة المسلمين، فتحـولت المعركـة لصالـح قـريش وقتـل عـدد كبيـر من المسلمين، وكسرت رباعية رسول الله، وشج وجهه، ووقع في حفرة من الحفر التي صنعها المنافق أبو عامر الراهب. وجاء أبيّ بن خلف ـ وقد حلف في مكة ليقتلن رسول الله ـ وهو يسعى نحوه يريد قتله، وحمل عليه، فاستقبله مصعب بن عمير يقي رسول الله ﷺ بنفسه، ولكن أُبياً قُتل بيد رسول الله ﷺ واستحق لعنة الله الأبدية.

استشهاد مصعب:

روت أم عمارة المؤمنة المجاهدة التي فعلت الأعاجيب في أحد طرفاً من قصة ذلك اليوم، فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى

---

(١) ويقصد بذلك أن يكون حامل اللواء من بني عبد الدار.

رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت إليَّ الجراح، ولما ولّى الناس عن رسول الله أقبل ابن قمئة، وهو يقول: دلوني على محمد، لانجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله، فضربني هذه الضربة(١) ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان(٢).

وهكذا ظلت الصفوة المجاهدة تدافع عن رسول الله وعن حمى الإسلام بالأجساد والأرواح. وكان أبو دجانة قد جعل من جسمه ترساً دون رسول الله، حتى إن النبل ليقع على ظهره وهو منحنٍ، وتدافع المسلمون يموتون دفاعاً عن العقيدة واستبشاراً بالشهادة والجنة، وعاد الذين انهزموا بعد سماعهم بمقتل رسول الله وآثروا الشهادة من جديد.

وظل مصعب بين القلة المؤمنة التي ظلت تدافع عن دعوتها وعن رسولها، يلقى المدججين من قريش، وينافح بسيفه وجسده ويدفع الحاقدين الذين يقذفون بأنفسهم لقتل رسول الله، وانهال المشركون ضرباً وفتكاً بالمسلمين، الذين تشتتت قواهم بعد نزول الرماة وهجوم الفرسان والمشركين من الخلف. وأصبحت السيوف تنوش الأجساد، والرماح تستل

---

(١) تشير لضربة أحدثت جرحاً عميقاً في عاتقها.

(٢) انظر كتاب «نسيبة بنت كعب أم عمارة». (للمؤلف).

الأرواح، والمشركون يتدافعون نحو رسول الله للقضاء عليه، بينما بقي الأبطال المؤمنون صامدين، وعلت أصوات التكبير، ورأوا جنة الله الخالدة على مرمى خطوات، وبقي اللواء باليد القوية عالياً عالياً، يمسكه مصعب بقوة وثبات ويفديه بالروح، وينافح عنه وعن رسول الله وكأنه كان يهتف لن ينزل اللواء، ولن تنهزم كلمة الحق، ما أحلى الشهادة!!.

وتدافع المشركون نحو اللواء، وأقبل ابن قمئة فشد على مصعب، فضرب يده اليمنى فقطعها، ومصعب يهتف: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» ثم أخذ اللواء بيده اليسرى حتى لا يقع فضرب اللعين يده اليسرى فقطعها، فحنا على اللواء وضمّه بعضديه إلى صدره وهو يهتف: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» ثم حمل اللعين عليه الثالثة بالرمح فأنفذه، واندقَّ الرمح، ووقع مصعب على الأرض وسقط اللواء، فابتدره رجلان من بني عبد الدار «سويبط بن سعد بن حرملة وأبو الروم بن عمير ـ أخو مصعب ـ» فأخذه أبو الروم بن عمير، فلم يزل في يده حتى دخل به المدينة حين انصرف المسلمون.

رحمك الله يا مصعب الخير. رحمك الله يا داعية الإسلام ويا حامل اللواء، لقد حملت الراية فكنت أميناً على حملها، صادقاً في الدفاع عنها، مضحياً من أجل الحق بكل ما غلا في الأرض. ها أنت تترك ما حرص عليه الناس من أجل

الظفر برضوان الله يوم دخلت دار الأرقم بن أبي الأرقم، تاركاً لهو الجاهلية وأنديتها الفاجرة ابتغاء لرضوان الله، وتركت مكة مهاجراً إلى الحبشة من أجل دعوة الله، وحملت راية الدعوة في دروب المدينة ليدخل الناس في دين الله أفواجاً.

لقد جاهدت باليقين والصبر والعبادة والثبات. وها أنت تدخل المعارك في مقدمة الصفوف، تحمل الراية لتعلي كلمة الله، حتى لقيت الله شهيداً على الحق، وضحيت أحسن ما تكون التضحية.

لقد آمنت صادقاً، ودعوت صادقاً، وجاهدت صادقاً، واستشهدت صادقاً، رضي الله عنك.

وانتهت المعركة بعد استشهاد عدد من المسلمين دفاعاً عن عقيدتهم وقائدهم، وجاء رسول الله ﷺ يتفقد القتلى من المسلمين فرأى عمه حمزة رضي الله عنه فبكاه وحزن عليه حزناً شديداً، ثم تفقد بقية القتلى وحزن عليهم أشد الحزن، ثم أمر بدفنهم حيث سقطوا وهم يدافعون ويجاهدون، دون أن يغسلوا بعد أن صلى عليهم.

ولما أشرف على الشهداء قال: «أنا شهيد على هؤلاء، أنه ما من جريح يجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه: اللون لون الدم، والريح ريح المسك. انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر».

ولما مر على مصعب بن عمير الشهيد وقف عليه ودعا له

وقرأ: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم مَن قضى نحبه، ومنهم مَن ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً»[1] ثم قال: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه».

تعقيب على معركة أحد:

قبل أن نمضي في الحديث عن مصعب لا بد من وقفة قصيرة عند أحد، لنرى موقف هذا الطراز من المؤمنين في المعركة، ولنأخذ بعض الدروس العملية، حيث بدا واضحاً أنه كان لا بد من الدروس في أحد. وهذه الدروس لن تكون خطباً تتلى، ولا أوراقاً تكتب؛ وإنما ستكون بالدماء والجراح والآلام وستكون في ساحة المعركة بين بوارق الموت وإرعاد الخوف، حتى يصحح المسلمون ـ جميعهم ـ مفاهيمهم في الحياة والدعوة ولكي يتعرفوا على طريق النصر الحقيقي، فبهذه المعاني ستغدو أحداث المعركة طريقاً واضحاً ومعالم خالدة، ودستوراً باقياً لجند الله على مدى الدهر.

فمعركة أحد كانت امتحاناً قاسياً ثقيل الوطأة «محّض السرائر ومزّق النقاب عن مخبوئها، فامتاز النفاق عن الإيمان، بل تميزت مراتب الإيمان ـ نفسه ـ فعُرِفَ الذين ركلوا الدنيا بنعالهم فلم يعرجوا على مطمع من مطامعها، والذين مالوا

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٢٣).

إليها بعض الميل، فنشأ عن أطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة».

«والدعوات إبان امتدادها وانتصارها تغري الكثير بالانضواء تحت لوائها، فيختلط المخلص بالمغرض، والأصيل بالدخيل، وهذا الاختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسالات الكبيرة وإنتاجها، ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجات عنيفة، تعزل خَبَثها عنها، وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التمحيص في أحد: «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه، حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب»[(١)].

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن تعلن عن نفاقهم السماء، فإذا تجاوزت السفوح التي يدب عليها أولئك المنافقون، وثبت إلى ذرا شامخة للإيمان البعيد الغور، النقي العنصر، يتمثل في مرحلة الهجوم المظفر الذي ابتدأ به القتال، ثم في مرحلة الدفاع النبيل الهائل الذي حمل المسلمون عبئه عندما ارتدت الكرة للمشركين ورجحت كفتهم».

«إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم، ويوجهون زمامه بعزماتهم، هم الذين صَلَوْا هذه الحرب، وحفظوا بها

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران.

مصير الإسلام في الأرض»[٢].

ويقدم سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلال القرآن للآيات التي نزلت بعد المعركة قائلاً:

«وغزوة أحد لم تكن معركة في الميدان وحده، وإنما كانت معركة ـ كذلك ـ في الضمير، كانت معركة ميدانها أوسع الميادين، لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانباً واحداً من ميدانها الهائل الذي دارت فيه. . . ميدان النفس البشرية وتصوراتها ومشاعرها وأطماعها وشهواتها ودوافعها وكوابحها على العموم، وكان القرآن هناك يعالج هذه النفس بألطف وأعمق، وبأفعل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزال. . . » «وكان النصر أولاً، وكانت الهزيمة ثانياً، وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة: انتصار المعرفة الواضحة، والرؤية المستنيرة للحقائق التي جلّاها القرآن، واستقرار المشاعر على هذه الحقائق استقرار اليقين، وتمحيص النفوس وتمييز الصفوف، وانطلاق الجماعة المسلمة بعد ذلك متحررة من كثير من غبش التصور، وتميع القيم، وتأرجح المشاعر في الصف المسلم، وذلك بتميز المنافقين في الصف إلى حد كبير، ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق في القول والفعل وفي الشعور والسلوك

(٢) عن فقه السيرة للأستاذ محمد الغزالي (٢٨٠).

ووضوح تكاليف الإيمان وتكاليف الدعوة إليه والحركة به ومقتضيات ذلك كله، والتوكل على الله وحده في كل خطوة من خطوات الطريق، ورد الأمر إلى الله وحده في النصر والهزيمة وفي الموت والحياة وفي كل أمر وفي كل اتجاه».

«وكانت هذه الحصيلة الضخمة التي استقرت في الجماعة المسلمة من وراء الأحداث، ومن وراء التوجيهات القرآنية بعد الأحداث، أكبر وأخطر من حصيلة النَّصر والغنيمة لو عاد المسلمون من الغزوة بالنصر والغنيمة. وقد كانت الجماعة - إذ ذاك - أحوج ما تكون لهذه الحصيلة الضخمة. كانت أحوج إليها ألف مرة من حصيلة النصر والغنيمة، وكان الرصيد الباقي فيها للأمة المسلمة في كل جيل أهم وأبقى كذلك من حصيلة النصر والغنيمة»[١].

وقال في موضع آخر من الظلال تعقيباً على المعركة: «ولقد كان الله سبحانه وتعالى قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه، منذ اللحظة الأولى، وبلا كد من المؤمنين ولا عناء، وكان قادراً أن ينزل الملائكة تقاتل معهم أو بدونهم، وتدمر على المشركين كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط».

«ولكن المسألة ليست هي النصر، إنما هي تربية الجماعة

---

(١) انظر في ظلال القرآن تفسير سورة آل عمران.

المسلمة التي تعد لتستلم قيادة البشرية. والبشرية بكل ضعفها ونقصها، وبكل شهواتها ونزواتها، وبكل جاهليتها وانحرافها وقيادتها قيادة راشدة، تقتضي استعداداً عالياً من القيادة. وأول ما تقتضيه: صلابة في الخلق، وثبات على الحق، وصبر على المعاناة، ومعرفة ببواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية، وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف ووسائل العلاج ثم صبر على الرفاه كالصبر على الشدة، وصبر على الشدة بعد الرخاء وطعمها يومئذ لاذع مرير».

«وهذه التربية هي التي يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة، ليعدها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق الذي ينوطه بها في هذه الأرض، وقد شاء - سبحانه - أن يجعل هذا الدور من نصيب الإنسان الذي استخلفه في هذا الملك العريض، وَقَدرُ الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه بشتى الأسباب والوسائل، وشتى الملابسات والوقائع، يمضي أحياناً عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة، فتستبشر وترفع ثقتها بنفسها في ظل العون الإلٓهي، وتجرب لذة النصر وتصبر على نشوته، وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء، وعلى التزام التواضع والشكر ويمضي أحياناً عن طريق الهزيمة والكرب والشدة، فتلجأ إلى الله، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن

منهج الله، وتجرب مرارة الهزيمة، وتستعلي مع ذلك على الباطل بما عندها من الحق المجرد، وتعرف مواضع نقصها ومداخل شهواتها ومزالق أقدامها، فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة، وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد، ويمضي قدر الله وفق سنة لا يتخلف ولا يحيد، وقد كان هذا من رصيد معركة أُحُد».

ويلخص بعد ذلك أهم الحقائق التي تمخضت عن المعركة بعدة أمور، نجتزىء شيئاً منها:

١ ـ لقد تمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة في طبيعة هذا الدين، الذي هو المنهج الإلّهي للحياة البشرية، وفي طريقته في العمل في حياة البشر، وهي حقيقة أولية بسيطة، ولكنها كثيراً ما تنسى ولا تدرك ابتداء، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين في حقيقته وفي واقعه التاريخي، في حياة الإنسانية وفي دوره أمس واليوم وغداً:

إن بعضنا ينتظر من هذا الدين ـ ما دام هو المنهج الإلّهي للحياة البشرية ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة دون اعتبار لطبيعة البشر وطاقاتهم ولواقعهم المادي في أية مرحلة من مراحل نموهم، وفي أية بيئة من بيئاتهم، إن هذا الدين منهج للحياة البشرية يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية، ويبدأ في

العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم، ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود جهودهم البشرية وطاقاتهم البشرية ويبلغ بهم أقصى ما تمكنهم طاقاتهم وجهدهم من بلوغه.

٢ ـ وتمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة عن طبيعة النفس البشرية، وطبيعة الفطرة الإنسانية، وطبيعة الجهد البشري ومدى ما يمكن أن يبلغه في تحقيق المنهج الإلٓهي.

إن النفس البشرية ليست كاملة ـ في واقعها ـ ولكنها في الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض.

٣ ـ وحقيقة ثالثة: حقيقة الارتباط الوثيق في منهج الله بين واقع النفس المسلمة والجماعة المسلمة، وبين كل معركة تخوضها مع أعدائها في أي ميدان. الارتباط بين العقيدة والتصور والخلق والسلوك والتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبين النصر والهزيمة في كل معركة، فكل هذه عوامل أساسية فيما يصيبها من نصر أو هزيمة.

٤ ـ وحقيقة رابعة: فهو يأخذ الجماعة المسلمة بالأحداث وما تنشئه في النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات، ثم يأخذهم بالتعقيب على الأحداث على النحو الذي يمثله التعقيب القرآني على غزوة أُحُد، وهو التعقيب الذي يتلمس

كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثر بالحادثة، ليصحح تأثره، ويرسب فيه الحقيقة التي يريد لها أن تستقر وتستريح. وهو لا بدع جانباً من الجوانب، ولا خاطرة من الخواطر، ولا تصوراً من التصورات، ولا استجابة من الاستجابات، حتى يوجه إليها الأنظار، ويسلط عليها الأضواء، ويكشف عن المخبوء فيها في دروس النفس البشرية ومنحنياتها، ويظهرها في وضح النور، ويصحح المشاعر والتصورات والقيم، ويقرر المبادىء التي يريد أن يقوم عليها التصور الإسلامي المتين، وأن تقوم عليها الحياة الإسلامية المستقرة، مما يلهم وجوب اتخاذ الأحداث التي تقع للجماعة المسلمة في كل مكان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق.

٥ ـ وحقيقة خامسة عن واقعية المنهج الإلهي، فمن وسائل هذا المنهج لإنشاء آثاره في عالم الواقع مزاولته بالفعل، فهو لا يقدم مبادىء نظرية، ولا توجيهات مجردة، ولكنه يطبق ويزاول نظرياته وتوجيهاته، وأظهر مثل على واقعية المنهج في هذه الغزوة موقفه إزاء الشورى.

٦ ـ وحقيقة سادسة وأخيرة: إن منهج الله ثابت، وقيمه وموازينه ثابتة، والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج، ويخطئون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد السلوك، ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوباً على المنهج ولا مغيراً لقيمه وموازينه الثابتة».

وهكا كانت معركة أحد وما انتهت إليه من المحنة الكبيرة للمسلمين، أعطتهم دروساً وعظات وفوائد لا بد منها في طريق الدعوة الطويل، وعلى مدى الأجيال والأمكنة، وفهم المسلمون هذه الـدروس، فكانت زاداً كبيـراً في التصور والسلوك في الحرب والسلم. ولـو لم يكن هناك دماء وقتلى وجراح وآلام وشهادة، لما كان لهذه الدروس قيمتها الواقعية، ولما أخذت في النفوس هذا العمق، وما حمزة، ومصعب، وسعد بن الربيع، وغيرهم ـ رضوان الله عليهم ـ إلا منارات في الطريق.

أمام الشهيد

إن المسلم لا يستطيع أن يبلغ مرتبة الشهادة إلا بالإخلاص والجهد والتضحية، وبرحمة من الله تعالى أيضاً. والله سبحانه لا ينعم بهذه المنزلة إلا على الأخيار المخلصين من عباده، الذين يبتغون مرضاته، فيكلؤهم بالرحمة، ويصطفيهم لهذه المنزلة الكريمة: ﴿إن يمسسكم قَرحٌ فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾(١).

فالشهداء مختارون يصطفيهم الله من بين المجاهدين المخلصين، ويتخذهم ـ سبحانه ـ شهداء على الحق وفي سبيله، فليست الشهادة رزية ولا خسارة، وليست مصيبة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص.

إن هؤلاء الشهداء ـ ومن بينهم مصعب بن عمير ـ هم

---

(١) الآيتان ١٤٠ ـ ١٤١ من سورة آل عمران.

الذين اختصهم الله في أحد. ورزقهم مرتبة الشهادة ليقربهم إليه في جناته.

«وهم شهداء عند الله على الحق الذي بعث به للناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة على الحق الذي لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق الحق وتقريره في دنيا الناس. ويؤدونها بأرواحهم ودمائهم على هذا الحق الذي أرخصوا في سبيله كل شيء، ويؤدونها على أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق، وعلى أنهم هم الذين استيقنوا هذا، فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل وطرده من حياتهم وحياة الناس؛ لإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في دنيا الناس. يستشهدهم الله على هذا كله، فيستشهدون وتكون شهادتهم الدماء النازفة، والأرواح التي تصعد إلى الله مطمئنة راضية. وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال»[١].

وهكذا كان مصعب بن عمير بين هؤلاء المؤمنين الذين اختارهم الله للشهادة، لأنه صدق البيعة، واستقام في العمل، وأخلص النية، وضحى في البذل، فتقدم للشهادة مستيقناً مطمئناً، تقدم إليها بثبات وشجاعة، لأنه يعرف أنه الحق، ولأنه يتقدم لنيل رضوان الله الذي لا تعدله نعمة.

---

(١) انظر في ظلال القرآن تفسير سورة آل عمران.

تقدم مصعب للشهادة باسماً لأنها طريق الجنة، وتقدم مستبشراً لأنها فوز ونعمة، وتقدم شجاعاً لأنها منزلة كبرى عند الله: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾(١).

وكان مصعب شهيد الحق من لحظة دخوله دار الأرقم ليسلم. فقد أيقن بالحق، وسار في طريقه، وثبت عليه. وترك نعيم الدنيا ورفاهيتها، ووقف يحمل الحق صلباً ثابتاً مطمئناً أمام محنة العذاب من أهله وقومه، حتى فاضت روحه الطاهرة هنا في أحد، وهو يحتضن اللواء بقوة، ويمسكه بحب وصلابة، لأنه رمز الحق الذي آمن به، ورمز الطريق االذي لا يحيد عنه، ورمز الإيمان والمنهج الذي اختاره الله للبشرية. وسقط شهيداً بين إخوانه، ولكنه لم يترك اللواء يسقط، لأن الحق لا يزال باقياً إلى يوم القيامة.

روى ابن سعد في طبقاته قال: أعطى رسول الله ﷺ يوم أحد مصعب بن عمير اللواء، فقتل مصعب، فأخذه ملَك في صورة مصعب، فجعل، رسول الله ﷺ يقول في آخر النهار:

(١) الآيات ١٦٠ ـ ١٧١ من سورة آل عمران.

«تقدم يا مصعب» فالتفت إليه الملك فقال: لست بمصعب، فعرف رسول الله أنه ملك أُيِّد به. ومر رسول الله ﷺ على الشهداء فرأى مصعب بن عمير وهو ملقى على وجهه، فقرأ هذه الآية: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم مَن ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[1] ثم قال: «إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة».

ثم أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام».

فهذه شهادة من رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على صدق مصعب في حياته واستشهاده، وحق لمصعب أن ينال هذا التكريم من رسول الله الذي خبر الرجال، وربى هؤلاء الأبطال على منهج الله، فأثمرت هذه النبتات، وأعطت أكرم عطاء، وبنت للحياة ذلك البناء الشامخ الفذ، الذي لا يزال مناراً لنا وللعالم.

وها هو خبَّاب بن الأرتّ الذي جاهد وامتحن وصبر، يتذكر مصعباً فيثني عليه قائلاً:

هاجرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في سبيل الله، نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من قضى ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد، فلم يوجد

---

(١) سورة الأحزاب (٢٣).

له ما يكفن فيه إلا نمرة، كنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله - ﷺ -: «اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه شيئاً من الإذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها».

فأي رجل هذا الذي كان يلبس أجمل الثياب، ويأكل أطيب الطعام، وترمقه العيون إكباراً وإعجاباً لحسنه وغناه ومكانته، ثم لا يجد المسلمون عنده غير ثوب قصير لا يكفي كفناً له؟!.

إنه الطراز الصادق للداعية المجاهد، الذي صدق الله في بيعته واستقام في دعوته، ولهذا كان إسلامه تخلياً عن الغنى والمال والجاه والرفاه، من أجل الحق الذي يحمل.

فكيف بنا ونحن نرى من يترك دعوته، وينسى أسلامه خوفاً على ضياع الثروة، أو حرصاً على مكاسب الدنيا!!.

وكيف بنا ونحن نرى من يود أن يملك الرفاه والمكانة والجاه مع ادعائه العمل!!.

إن المأساة الكبيرة التي يعيشها الجيل المعاصر هي ذلك الخلط العجيب بين الجاهلية والإسلام، الخلط في التصور والسلوك. وفي مرحلة الإعداد لن يستطيع المسلم أن يكون صادق الإيمان، ما لم يكنس من تصوره كل آثار الجاهلية، ويتخلى بطواعية عن مغريات الدنيا. ويترك ذلك الظمأ إلى

المال والثروة والجاه، ويبيع نفسه لله سبحانه وتعالى.

لقد شهد رسول الله ﷺ بكل هذه التضحيات الصادقة لمصعب، فوقف أمامه في أرض المعركة، وهو يستشرف بنظرته أبعاد المنهج الذي يخطه مع صحبه بكل هذه التضحيات، ليقول لمصعب: «لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حُلة، ولا أحسن لمه منك، ثم أنت شَعِث الرأس في بردة!!» ثم أمر به فقُبر.

صلى الله عليك يا رسول الله، وأنت تخطّ لنا هذا الطريق، وترسم في وقفتك أمام الشهيد المجاهد الداعية مصعب الطريق الصحيح للدعاة!! أية قيمة للدنيا، لنعيمها، للمال، واللباس والطعام، إذا كان ذلك في معصية الرب الكريم؟

إنك تشهد لمصعب بهذا التحول الهائل بين جاهليته وإسلامه تشهد له بهذه الهجرة الميمونة من حياة الرفاه إلى المحنة والعذاب والتضحية، لتحقيق معنى الإيمان الحق، وليكون الداعية الحق، وليصل إلى مرتبة الجهاد الصادق والشهادة المباركة.

إنها شهادة ومَعْلَم من معالم طريقنا، وكأنك تشير لنا: أنه لا يستقيم إيمان مع الحرص على الدنيا، ولن تستقيم دعوة مع الحرص على زينة الدنيا، ولن يستقيم جهاد يملأ قلب صاحبه حب الدنيا.

وعندما غادر رسول الله ﷺ مكان الشهيد، قام المسلمون

بدفنه، ونزل في قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسويبط ابن حرملة رضي الله عنهم أجمعين.

وعن شعبة، عن زيد بن إبراهيم، سمع أباه يقول: أُتي عبد الرحمن بن عوف بطعام، فجعل يبكي، فقال: قُتل حمزة فلم نجد ما يكفن به إلا ثوباً واحداً، وقتل مصعب بن عمير فلم يوجد ما يكفن فيه إلا ثوباً واحداً، لقد خشيت أن يكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي[١].

فهذه شهادة المؤمن للمؤمن، شهادة صحابي جليل لأخيه الشهيد وها هو ـ رغم إيمانه وتقواه ـ يخاف الدنيا وطيباتها.

إنه واحد من المبشرين بالجنة، والمجاهدين في سبيل الله، والقائمين على حدوده، يشهد لمصعب وحمزة بالإيمان، ويخاف المال والجاه والدنيا على نفسه؛ خوفاً من الفتنة وخوفاً من أن تكون قد عجلت له الطيبات في هذه الدنيا.

وخرج مصعب من الدنيا لأنه آثر رضوان الله على نعيمها، ولأنه كان داعية في سبيل الله، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يبغي من الحياة غير مرضاة الله، ولا يسعى إلى مطمع غير الجنة، ولا يكترث بمال أو جاه أو سلطان، بل كان يبذل كل هذا راضياً مطمئناً في سبيل دعوته، ويتخلى عن دنياه من

---

(١) سير أعلام النبلاء الجزء الأول.

أجل عقيدته ولهذا كان حزن رسول الله - ﷺ - كبيراً يوم استشهاده.

لقد كان استشهاده نموذجاً للمجاهدين الصادقين، الذين يحرصون على الدعوة أكثر من حرصهم على الروح والحياة، ويتشبثون بالعقيدة أكثر من تشبثهم بأعزّ ما يملكون، ويسعون إلى الله بقلوب يملؤها نور أبلج.

رحمك الله يا مصعب، يا داعية الإسلام، لقد حملت نصيبك من الدعوة، وكنت حفياً بها، أميناً عليها، صادقاً في حملها ثابتاً في مواطنها، حتى لقيت الله شهيداً ودخلت جنته الواسعة.

وها أنت ستبقى مثلاً للدعاة في منهجك وتضحيتك وصدقك ووعيك، ومثلاً للمجاهدين في شجاعتك وثباتك واستشهادك، فرحمة الله تكلؤ روحك، ورحمة الله تحيط بك، ونسأل الله أن يرزقنا الأسوة بك والسير في طريقك.

الخاتمة

وبعد: هذا هو مصعب بن عمير رضوان الله عليه، الشاب المسلم، والداعية المعلم، والصابر المجاهد، والمقاتل الشهيد، الذي آمن فصدق في إيمانه، ووعى أبعاد دعوته، وفهم معنى إسلامه، وأدرك حقيقة منهجه، وحين آمن ترك الدنيا من أجل آخرته، إيماناً بوعد الله، ترك المال والرفاه وهجر الطيبات، ورضي بالهجرة تلو الهجرة، والعذاب بعد الراحة، والجوع بعد الشبع وشظف العيش بعد الرفاه، والتسفيه بعد الحب والتكريم، والفقر بعد الغنى، ليحظى برضوان الله ومغفرته.

كان مصعب شاباً لا يعوزه المال أو الجاه أو الجمال، ولكنه حين أسلم آثر مرضاة الله على كل شيء، فبدل حياته كلها.

لقد علّمنا معنى الدعوة، وأبرز لنا صورة الشاب الداعية حين كان إسلامه رفضاً للجاه والمال والرفاه والرعاية، ورضاء بكل المحن القاسية في سبيل عقيدته.

كان في مكة فرداً في مجتمع تحيطه الجاهلية وطغيانها وجبروتها، ولم يخشَ شيئاً في سبل عقيدته، بل صبر وثبت حين كانت مرحلة الدعوة تقتضي الصبر والثبات، وقاتل وجاهد حين أمر الله بالجهاد. وكان في هجرته للحبشة رمز الشاب المسلم الذي لا تحده حدود الأرض، ولا تجزعه الغربة في سبيل الله، وإنما يرى الظفر كل الظفر في ثباته على الحق، وتبليغ دعوته للناس أجمعين.

وكان في هجرته للمدينة رمز الداعية الصابر الحصيف، الذي يدرك أبعاد الدعوة، ويعلم مسؤولية الداعية، فيصبر على الأذى ويبلغ الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجفو النوم والراحة من أجل تبليغ الحق للناس، فأثمرت دعوته، وأسلم على يديه كثير من الناس، وأعطانا نموذجاً مشرفاً من نماذج الدعاة الشباب.

وكان في غزوة بدر حامل اللواء ـ رمز الحق ـ فضرب بذلك أروع الأمثلة كما كان في دعوته، وبرز كبطل من أبطال بدر. وكان في غزوة أحد حامل اللواء أيضاً، قاتل أشد ما يكون القتال وثبت حين فر الناس، ودافع عن رسول الله بجسده وروحه، وتقطعت أوصاله دون أن يترك اللواء أو يدع المشركين يصلون إليه.

استحق من رسول الله الإكبار، فكانت وقفته أمام جسده الطاهر، وقفة الشهادة الحق للداعية المجاهد الشهيد أمام الله

وأمام الناس. كان علماً بارزاً بين الدعاة، وكان علماً بارزاً بين الشباب وكان علماً بارزاً بين المجاهدين، لأنه واحد من الذين ضربوا بسلوكهم أروع الأمثلة والتضحيات من أجل الدعوة.

فهذا هو الداعية الحق، الذي يهجر الدنيا ونعيمها ابتغاء مرضاة الله، ويهزأ بصعاب الدنيا وعذابها خوفاً من عذاب الله، لأنه يوقن بأن يوماً عند الله كألف سنة مما نعد في هذه الدنيا، ولأن رضوان الله أعظم من كل نعمة، ونعيمه فوق كل نعيم.

وهذا هو الصدق في الدعوة، والثبات في الطريق، والإخلاص في العمل، لقد كان مصعب نموذجاً حياً واقعياً.

ولم يكن وحده في ذلك، بل كان واحداً من مجتمع فريد مجتمع يتحرك كتلة واحدة في حركة منتظمة صامدة، لكي يحمل مشعل الحق في الحياة. وبرز مصعب واحداً ضمن هذا المجموع فكان عمله صدى لحركة مجتمعه، وعمل مجتمعه صورة لحركة أفراده.

وعسانا نرى في هذه الصورة لمصعب ومجتمع مصعب ما يرشدنا إلى الطريق، فلا تلهينا دنيا خضرة، ولا نكذب على أنفسنا فنخلط عملاً حسناً وآخر سيئاً، ولا نمزج بين الجاهلية والإسلام في صورة مشوهة منكرة، ولا نهتم بكل ما في الدنيا من مخاوف أو مغريات.

عسانا نعلم أن كثيراً من حياتنا ضالٌّ خاطىء، وأن كثيراً من آمالنا سراب خادع، وأن كثيراً من نوايانا تداخله مغريات الدنيا.

وعسانا أن نرى أن من يهجر دينه من أجل المال، أو تغريه الدنيا والجاه والرفاه، يخطىء الطريق، وينحرف في التصور والسلوك.

عسانا نكون قد أوضحنا شيئاً من هـذه العثرات، كي نتجنبها ونسلك السبيل القويم للفوز برضاء الله.

فإلى من يؤثرون رضاء الله، ويرتضون دعوة الله، إليهم سقت هذه الصورة عن مصعب بن عمير - رضي الله عنه - وعن مجتمعه الذي تحرك داخله وعمل فرداً فيه، في صورة واقعية حية، لنتأسى به، ونترجم معتقداتنا إلى سلوك وعمل ودعوة في حياتنا. والله على ما نقول شهيد، والحمد لله رب العالمين.

٢/ شوال/ ١٣٩٠هـ
٣٠/ ١١/ ١٩٧٠ م

المَــراجع

١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ـ على هامش الإصابة.

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ـ المكتبة الإسلامية بطهران.

٣ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ـ المكتبة التجارية بالقاهرة.

٤ ـ الأصنام لابن الكلبي ـ القاهرة.

٥ ـ الأعلام للزركلي ـ بيروت.

٦ ـ أنساب الأشراف للبلاذري ـ القاهرة، دار المعارف.

٧ ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ بيروت، مكتبة المعارف.

٨ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ـ القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

٩ ـ تاريخ الطبري لأبي جعفر الطبري ـ القاهرة، دار المعارف.

١٠ ـ تهذيب الأسماء واللغات للنووي ـ القاهرة، المطبعة المنيرية.

١١ ـ الجامع الصحيح للبخاري ـ القاهرة، دار الشعب.

١٢ ـ الجامع الصحيح لمسلم ـ القاهرة، دار التحرير.

١٣ ـ جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب ـ القاهرة، مكتبة وهبة.
١٤ ـ الجهاد في الإسلام للمودودي ـ بيروت.
١٥ ـ خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب ـ القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
١٦ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ـ بيروت، دار الكتاب العربي.
١٧ ـ حياة الصحابة لمحمد يوسف الكانـدهلوي ـ دمشق، دار القلم.
١٨ ـ دولة الفكرة لفتحي عثمان ـ القاهرة، مكتبة وهبة.
١٩ ـ الروض الأنف للسهيلي ـ القاهرة، مطبعة الجمالية.
٢٠ ـ سنن الترمذي للترمذي ـ حمص، نشر عزت عبيد الدعاس.
٢١ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي ـ القاهرة، دار المعارف.
٢٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام ـ القاهرة، دار التحرير.
٢٣ ـ شهداء الإسلام في عهد النبوة لعلي سامي النشار ـ القاهرة.
٢٤ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي ـ حلب، دار الوعي العربي.
٢٥ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ القاهرة، دار التحرير.
٢٦ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ القاهرة، المطبعة المنيرية.
٢٧ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ـ بيروت، دار العربية.
٢٨ ـ فقه السيرة لمحمد الغزالي ـ القاهرة، دار الكتب الحديثة.
٢٩ ـ مجموعة الوثائق السياسية للدكتور حميد الله ـ بيروت، دار الإرشاد.
٣٠ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ـ القـاهرة، مكتبة دار العربية.

٣١ ـ مبادىء الإسلام للمودودي ـ بيروت.
٣٢ ـ المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي ـ دمشق.
٣٣ ـ المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي ـ بيروت، دار القلم الكويتية.
٣٤ ـ معالم في الطريق لسيد قطب ـ القاهرة، مكتبة وهبة.
٣٥ ـ هذا الدين لسيد قطب ـ القاهرة، مكتبة وهبة.

الفهرس